فارس
الحصان الأشهب

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

فارس
الحصان الأشهب

تأليف: تيودور شتورم

ترجمة: د. مازن المغربي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠٢٢م

العنوان الأصلي للكتاب:

Der Schimmelreiter

الكاتب: Theodor Storm

الناشر: Reklam, 1998

المترجم: د. مازن المغربي

الآراء والمواقف الواردة في الكتاب هي آراءُ المؤلِّفِ ومواقِفُهُ ولا تعبِّرِ **(**بالضرورةِ**)** عن آراء الهيئة العامة السورية للكتاب ومواقفها**.**

*

إن ما عزمت على نشره هو أمر اطلعت عليه قبل ما يقارب نصف قرن في دار والدة جدتي، السيدة العجوز فديرسن زوجة السناتور، حين كنت جالساً على أريكتها الوثيرة منشغلاً بقراءة مجلة لها غلاف من الورق المقوى الأزرق، وما عاد في وسعي تذكر إن كانت المجلة من مدينة لايبزيغ أو من هامبورغ. مازلت أشعر أنني كما لو كنت متفرجاً، أتابع كيف استقرت اليد المتكلسة، لتلك التي تجاوزت الثمانين عاماً، تداعب بود شعر رأس حفيدها. مضى زمن طويل على دفنها وعلى دفن تلك الأويقات؛ عبثاً حاولت منذ ذلك الوقت التحقق من كل الصفحات، ولا يمكنني في هذا الصدد ضمان مدى صحة الوقائع إذا أراد أحد ما تكذيبها، كما لا تأكيدها؛ لكنني قادر على التأكيد بقوة أنها منذ تلك المدّة لم تضيعها ذاكرتي قطُّ على الرغم من أنه لم تتح لي أي مناسبة لاسترجاع ذلك مجدداً.

كان ذلك في العقد الثالث من قرننا، في عشية أحد أيام تشرين الأول - هكذا بدأ الراوي - وكنت في خضم عاصفة، أمتطي

حصاناً بمحاذاة سد لحماية الأرض المنخفضة من الفيضان في جزيرة فريزة الشمالية. على اليسار أمامي مسيرة ساعة على الدرب المكونة من طمي تصلب على مدى منطقة خالية من كل أنواع الماشية، وعلى اليمين، على مسافة لا تدعو للارتياح، من مياه بحر الشمال الطينية، وعلى الرغم أنه يمكن للمرء من على السد رؤية الجزر الصغيرة والكبيرة لكني لم أر شيئاً باستثناء الموجات الرمادية المخضرة التي تضرب دون هوادة بغضب جسم السد وترشني أنا والحصان برغوة وسخة؛ وخلف ذلك، الشفق الذي دمج الأرض بالسماء؛ كما أن الهلال الذي تمركز في الأوج، حجبته معظم الأوقات غمامات قاتمة. كان البرد قارساً ولم تكد تتمكّن يداي المتشنجتان من الإمساك بزمام الرسن، ولم أكن قادراً على لوم الغربان وطيور النورس التي قوقأت ونعقت هاربةً من العاصفة ملتجئةً إلى اليابسة. أرخى ظلام الليل سدوله، وسرعان ما عجزت تقريباً عن متابعة حدوات حصاني بثقة؛ لم ألتق بأيَّ نفس بشرية، ولم أسمع شيئاً عدا صياح الطيور حين كادت تلامسني أجنحتها الطويلة أنا أوحصاني الأمين، وغضب الرياح والمياه. لا أنكر أنني تمنيت أن أكون في ملاذ آمن.

العاصفة مستمرة لليوم الثالث، وكنت قد توقفت في نزل في الشمال القاسي يملكه أحد الأقرباء من ذوي المكانة الخاصة مقابل دفع الرسم المعتاد. ما عاد بإمكاني اليوم البقاء لفترة أطول، فلدي أعمال في المدينة التي لا يزال تفصلني عنها ساعتان باتجاه الجنوب، وعلى الرغم من كل فنون اعتراض ابن العم وزوجته اللطيفة، وعلى الرغم من لذة طبق أضلع الخروف مع الخضار المحضر في البيت، والتفاح الأخضر الشهي التي كانت تنتظر أن أتذوقها لكني، غادرت بعد الظهر «انتظر فقط حتى وصولك إلى البحر» صاح من عتبة بيته «يجب أن تعود؛ سأحتفظ لك بغرفتك»!. وحقيقة حين رمت علي كتلة من الغيوم السوداء عتمة أحاطت بي، في حين كادت الرياح النائحة تطيح بي أنا وفرسي من على السد، تسللت خاطرة إلى رأسي: «كف عن هذا الجنون! عد أدراجك إلى صديقك في العش الدافئ». بعدها خطر لي أن طريق العودة أطول من دربي باتجاه هدف رحلتي؛ وهكذا مضيت قدماً، ورفعت قبة معطفي وغطيت أذنيَّ.

ظهر الآن شيءٌ في مواجهتي على السد؛ لم أسمع شيئاً؛ إنما اتضح المشهد باستمرار كلما سرب الهلال نوره الساطع، وظننت

أنني تعرفت على شكل معتم، وبعدها، حين اقترب مني، رأيته، كان ممتطياً صهوة جواد، جواد أشهب ضامر طويل القوائم؛ مرتدياً معطفاً قاتماً تطاير حول كتفيه، ولما حاذيته حدقت بي عينان مثل جمرتين يحضنهما وجه شاحب.

من كان هذا؟ ما الذي أراده؟ - أدركت وقتها أنني لم أسمع وقع ضربات حوافر الحصان ولا سمعت تحمحمه؛ لكن كان الفرس والخيال قد مضيا بعيداً. تابعت المسير وأنا أفكر في ذلك، إنما لم يكن لدي الكثير من الوقت للتفكير، فسرعان ما تجاوزني قادماً من خلفي، وراودني شعور بأنني لامست المعطف المتطاير، ومر بي ظهوره، مستعجلاً مثل المرة الأولى، بصمت. بعدها شاهدته يبتعد باستمرار عني؛ ثم بدا لي فجأة رؤية ظليهما يختفيان على الأرض. قدت الجواد بشيء من الغضب خلفهما. ولما وصلت إلى تلك النقطة رأيت من على السد قطعة أرض انحسرت عنها المياه ورأيت قناة، وهذه هي التسمية التي يطلقونها هناك على المجرى الذي يسمح بتدفق المياه عندما تتجاوز مستوى معين لتصب في الأرض، وغالباً ما تبقى على شكل برك عميقة.

كانت المياه، على الرغم من سد الحماية ساكنة إلى حد مدهش؛ يبدو أن الفارس لم يعكر سكونها؛ ولم أعد ألمح طيفه. لكني شاهدت شيئاً آخر رحبت به بحبور؛ فهناك في الأسفل من الجزيرة الصغيرة صعد نحوي وميض نور لامع؛ بدا أنه آت من صف طويل من بيوت فريزة متفاوتة الارتفاع تطل على أحواض لبناء السفن؛ وأمامي مباشرة في منتصف الطريق أعلى السد الداخلي كان هناك دار كبيرة من نمط مماثل في الجهة الجنوبية، ورأيت على يسار باب الدار كل النوافذ مشعة الأنوار؛ ولمحت خلفها أشخاصاً وخُيل لي أنني أسمعهم على الرغم من العاصفة. بادر حصاني من تلقاء نفسه إلى الابتعاد عن طريق السد سالكاً درباً يفضي إلى باب الدار. وتبين لي بوضوح أنها حانة؛ ولاحظت أمام النوافذ ما يسمي بمربط الخيل، أي نطاقين جلديين في طرفيهما حلقات فولاذية كبيرة لربط الدواب والخيول التي تتوقف هنا. ربطت فرسي، وأشرت إلى النادل الذي جاء لاستقبالي عند المدخل. «هل هذا اجتماع؟» سألته بعد أن وصل إلى مسمعي بوضوح ضجيج أصوات أشخاص وقرع كؤوس عبر باب الغرفة. «قد يكون كذلك» رد النادل بلغة ألمانية

مسطحة[1] - وعرفت لاحقاً أن هذه اللهجة انتشرت هنا، إلى جانب اللهجة الفريزية، منذ أكثر من مئة عام - «المشرف على السد والمراقبون وبعض اصحاب الشأن! يتعلق الأمر بارتفاع منسوب المياه».

رأيت حين دخولي أكثر من عشرة رجال جالسين حول طاولة محاذية للنوافذ؛ وعليها قدر فيه شراب البنش، وبدا أن رجلاً من الدولة يمارس زعامته عليهم.

بادرتهم بالتحية وطلبت الإذن بمجالستهم الأمر الذي قوبل بترحاب. «تقومون بالمراقبة من هنا! قلت لهم وأنا أخاطب كل رجل منهم». «الطقس سيِّئ في الخارج، والسد يحتاج إليكم».

«نعرف هذا»، رد الرجل؛ نحن هنا على الجانب الشرقي، إنما نظن أننا بمنجاة من الخطر؛ الوضع في الجانب الآخر ليس آمناً؛ فمعظم السدود هناك مشيدة وفق نموذج قديم؛ غيرنا موقع سدنا الرئيسي في القرن المنصرم. صار الجو بارداً في الخارج بالنسبة لنا، عاد للجلوس وأردف لا بدّ أنك عبرته؛ علينا البقاء

---

(١) لهجة ألمانية دارجة أقرب إلى العامية.

هنا لبضع ساعات؛ ولدينا رجال ثقات في الخارج يخبرونا بما يجري. «وما إن أوصيت النادل حتى حصلت على كأس تصاعد منه البخار». سرعان ما عرفت أن جاري الودود كان المشرف على السد؛ خضنا حديثاً بدأته برواية اللقاء الوحيد الذي صادفته على السد. بدا عليه الاهتمام، ولاحظت فجأة أن كل الأصوات حولي قد خمدت. «فارس الحصان الأشهب!» صاح أحد الحضور، وعبرت موجة من الاضطراب الآخرين. انتصب المشرف واقفاً «لا داعي للاضطراب» قال للجالسين حول الطاولة؛ لا يقتصر الأمر علينا ففي عام ١٧حدث أمر مماثل؛ لنأمل أن تمر الأمور بسلام!. انتابني إثر ذلك شيء من الضيق فقلت: «وماذا عن فارس الحصان الأشهب»؟.

بعيداً خلف المدفأة جلس، متكوماً بعض الشيء، رجل أشيب، مُرْتَدٍ رداء أسود باهت بدت معه كتفه مائلة بعض الشيء. لم يشارك بكلمة خلال النقاش الذي دار بين الآخرين، لكن عينيه المتقلصتين، وسط رموشه التي حافظت على سوادها على الرغم من بياض شعره المنكوش، دلتا بوضوح على أنه لم يكن جالساً هنا لينام.

أشار المشرف بيده إلى هذا الرجل: «مدير مدرستنا!» قال بصوت عال: إنه أفضل من هم بيننا ليستطيع رواية الأمر لك؛ سيكون ذلك بتصرف على طريقته، وليس صحيحاً تماماً كما تقدر على روايته مدبرة منزلي العجوز آنتيه فولمرس. «أنتم تمزحون حضرة المشرف!» جاء صوت مدير المدرسة الموحي بالوهن من وراء المدفأة، «عليكم التنحي جانباً أنتم وتنّينكم العجوز!»

«أجل، أجل يا مدير المدرسة!، رد الآخر: «لكن حكايا التنين هي الأفضل!» «حقاً!» سأل السيد الضئيل، «لدينا هنا آراء مختلفة»؛ ولمعت ابتسامة ساهمة على الوجه الدقيق.

«كما ترون!» همس المشرف في أذني؛ «هو على الدوام متجبر؛ درس الفقه في شبابه وبسبب زواج متعثر ظل عالقاً هنا في موطنه بوصفه مدير مدرسة».

أثناء ذلك أتى الرجل من قرب زاوية المدفأة، وجلس إلى جانبي إلى الطاولة الطويلة. «تحدث! ما عليك سوى أن تروي، حضرة مدير المدرسة!» صاح بعض الشباب ضمن الجلوس.

«بالتأكيد» قال العجوز؛ إنما هناك الكثير من الخرافات وهناك فن لرواية ذلك مع تجاهلها.

«علي أن أرجوكم عدم تخطيها» أجبت أنا، ثقوا بأنني سأعرف بنفسي التمييز بين القمح والتبن!

حدق بي العجوز بابتسامة طافحة بالتفهم. «إذن هيا!» قال.

في منتصف القرن الماضي، وربما في وقت أقدم بكثير، كان هناك مراقب من مراقبي السد عرف عن السد وحول قنوات تصريف المياه أكثر مما حرص المزارعون ومالكو المزارع على فهمه؛ لكن لم يكد يكون كافياً تماماً، وهو لم يقرأ سوى القليل مما كتبه المختصون، كان عصامياً علم نفسه منذ نعومة أظفاره. من المؤكد أنكم سمعتم من قبل أن أهل منطقة فريزة يجيدون الحساب، وأكيد أنكم سمعتم ما قيل عن صاحبنا هانس مومسن من فارتوفت الذي كان مزارعاً ومع ذلك كان قادراً على صناعة البوصلات وساعات الملاحة، وتلسكوبات وأراغن. نعم كان والد مشرف السد من نمط هذا الرجل؛ إنما كان بطبيعة الحال أقل مهارة منه. امتلك بعض قطع الأراضي المستصلحة، زرع فيها لفتاً وفاصولياء، وكان هناك بقرة ترعى. كان يمضي في الخريف وفي بداية العام للعمل في مسح الأراضي، ويقضي الشتاء في غرفته يرسم ويشحذ السكاكين

حين تعصف الرياح الشمالية الغربية. كان الشاب يقضي معظم الوقت في جواره، ويرفع رأسه عن كتاب العهد القديم أو عن كتاب الدراسة التمهيدي ليرمق والده وهو يضع مخططات قياس الأراضي ويقوم بالحسابات، وينكش شعره الأشقر بيده. وذات مساء سأل العجوز، لماذا كتب ما ورد هنا على هذا الشكل؟ ولماذا لا يجوز أن يكون مختلفاً، ثم طرح رأيه الشخصي حول هذا. لكن الأب الذي لم يعرف إجابة عن هذا هز رأسه وتكلم: «لا أقدر على قول هذا لك، يكفي، هذه هي الحال، وأنت تغالط نفسك. إن أردت معرفة المزيد ابحث غداً في الصندوق القائم في أرضنا عن كتاب قيل إن إقليدس كتبه؛ ستجد فيه ما أردته!».

- قصد الشاب في اليوم التالي الأرض، وسرعان ما عثر على الكتاب؛ لم يكن هناك الكثير من الكتب في الدار؛ لكن الأب ضحك حين وضعه أمامه على الطاولة. كان الكتاب نسخة هولندية من كتاب إقليدس، صحيح أن الهولندية قريبة من الألمانية لكن لم يفهم كلاهما شيئاً. أجل، أجل، هذا الكتاب عائد لأبي، كان يفهمه؛ ألم يكن هناك نسخة ألمانية؟

لكن الولد الذي كان ضنيناً بالكلام نظر إلى أبيه بهدوء واكتفى بقول: «هل يمكنني الاحتفاظ به؟ ما من نسخة ألمانية هناك».

ولما أومأ الأب موافقاً أشار الفتى إلى كتيب آخر شبه ممزق: «وهذا أيضاً؟».

«خذهما كليهما! قال تيدة هايين؛ لن يفيداك كثيراً».

لكن الكتاب الثاني كان كتاب قواعد اللغة الهولندية، وبما أنه كان هناك وقتٌ طويلٌ قبل مضي الشتاء فما إن ظهرت أزهار فاكهة عنب الثعلب من جديد حتى كان الكتاب قد ساعد الشاب إلى حد جعله قادراً على فهم كل كتاب إقليدس تقريباً؛ إذ كان الكتاب وقتها شائعاً.

توقف الراوي وقال: سيدي أنا لا أجهل أن هذا قد روي أيضاً عن هانسمومسن؛ إنما حكاية هاوكه هايين، وهذا اسم الشاب، معروفة لدينا قبل مولد هانس. أنتم تعرفون بالتأكيد أنه ما إن يصعد نجم شخص ما حتى ينسب إليه كل ما بذله من سبقوه من جهد وكل ما عانوه من إهانات.

حينما رأى الكهل أن الشاب فقد اهتمامه بالبقر وبالخراف، وأنه لم يكد ينتبه إلى أزهار العنب البري الذي يضفي السعادة على كل رجل في الأهوار، مضى في تفكيره ووصل إلى أن الموقع الصغير يكفي لمزارع ولفتى، لكنه لا يكفي لنصف متعلم وخادم، وبما أنه هو بالتحديد لم يأت من فرع مورق، لذا أرسل ابنه الأكبر إلى السد، ليتعلم مهنة مسح الأراضي بصحبة عمال آخرين من الشرق وصولاً إلى منطقة مارتيني. وقال في نفسه «سيشفيه هذا من إقليدس». عمل الشاب في رسم الخرائط لكن كتاب إقليدس كان في جيبه، وحينما كان العمال يتناولون الإفطار أو يتلون صلاة المساء كان يجلس على عربة يدوية مقلوبة والكتاب في يده.

وفي الخريف، حين كانت المياه ترتفع وتفرض إيقاف العمل لم يكن يذهب مع الآخرين إلى البيت، بل كان يبقى، ويداه تضمان ركبتيه، ويجلس عند مسقط مياه السد ويراقب على مدى ساعات كيف تضرب موجات البحر الشمالية العشب الناتئ أعلى السد؛ وفقط حين كانت قدماه تتبللان والرذاذ يرش وجهه، كان يغير مكانه بضع خطوات إلى الأعلى ويتابع جلوسه. ما كان يسمع

تلاطم المياه ولا صيحات النوارس وطيور الشاطئ التي، تحوم حوله أو تطير فوقه تكاد أجنحتها تلامسه.

لم تر عيناه السوداوان المتألقتان، بدورهما، شيئاً، كيف تسهم المياه الثائرة، من بعيد، في نشر الليل. واقتصر ما رآه على وميض المياه، التي ما إن يرتفع مستواها حتى تضرب المكان عينه، ويرى بأم عينه كيف ينمو العشب على منحدر جسم السد. وبعد تحديق طويل كان يومي برأسه ببطء شديد أو يرسم بيده خطاً دقيقاً غير مرئي في الهواء كما لو أنه أراد منح السد مسقط مياه أكثر سلاسة.

وحين يخيم الظلام الحالك وتختفي كل معالم الأرض عن عينيه ولا تسمع أذناه سوى قصف اللجة، وقتئذٍ فقط كان يقف وينكفئ عائداً إلى البيت وهو شبه مبلل.

ذات مرة لما دخل على والده المنهمك بتنظيف أجهزة القياس الخاصة به بهذه الهيئة صاح فيه: «ما الذي كنت تفعله في الخارج؟ كان من الوارد أن تغرق؛ فالمياه كادت تغطي السد اليوم».

نظر إليه هاوكه غير هياب.

- «ألا تسمعني؟ قلت إنه كان من الممكن أن تغرق».

أجل، رد هاوكه. لكنني لم أغرق!

«لا» رد الكهل بعد وهلة ونظر إلى وجهه كما لو كان ساهماً، لم تغرق هذه المرة بعد.

لكن، رد هاوكه، سدودنا لا قيمة لها!

- ما الذي تقصده يا ولدي؟

«قلت إن السدود»

- ما بها السدود؟

ليست مناسبة! أجاب هاوكه.

ضحك الكهل في وجهه. ما الأمر يا ولدي؟ هل أنت الطفل المعجزة من لوبيك!

لكن الشاب لم يتزعزع. «موقع المياه شديد الميلان، وإن وقع ما سبق أن حدث ذات مرة فسنغرق ونحن وراء السد!!

أخذ الكهل كيس التبغ من على الطاولة، كور قطعة ومضغها بأسنانه. «ما هو عدد المخططات التي رسمتها اليوم؟» سأله غاضباً؛ لأنه أدرك تماماً أن العمل في السد لم يبعد الشاب عن تشغيل عقله.

«لا أعرف يا والدي» هذا ما قاله، بقدر ما فعل الآخرون ربما أكثر منهم بنصف دزينة؛ لكن يجب أن تكون السدود غير ما هي عليه!

حسناً قال الكهل مبتسماً: «ربما بإمكانك قول هذا لمشرف السد وحين ذلك يمكنك تعديلها!»

«أجل يا والدي» رد الشاب.

حدق فيه الكهل، وازدرد لعابه عدة مرات ثم مضى إلى الباب، فهو لم يعرف كيف يرد على الشاب.

وحين انتهى العمل في السد مع نهاية تشرين الأول، ظل الدرب المتجه شمالاً باتجاه المرفأ التسلية المفضلة لدى هاوكه هايين؛ وكان ينتظر عيد كل القديسين، الذي يصادف مرحلة الاعتدال الخريفي، إذ يقال هنا إن أهل منطقة فريزة ينتظرونه كما ينتظر الأطفال اليوم عيد الميلاد. وإن وقع فيضان ربيعي قبل ذلك، فسيكون المرء واثقاً من أن هاوكه سيكون في الخارج على الرغم من العواصف والطقس وحيداً على السد؛ وحتى حين تثرثر النوارس لما تضرب المياه السد وتجرف عند انحسارها حُزماً

كاملة من الغطاء العشبي وترميه في البحر، حين ذلك يمكن للمرء سماع ضحك هاوكه الغاضب وهو يصرخ وسط الصخب، «أنتم عاجزون عن إنجاز أي شيء بصورة صحيحة». وأخيراً ومع حلول الظلام يرجع في القفر بمحاذاة السد باتجاه الدار، إلى أن يصل بجسده الطويل الضامر إلى الباب الواطىء المفضي إلى دار والده المسقوف بالقش ويندس في غرفته الصغيرة. كان يجلب أحياناً حفنة من الطمي، ويجلس قبالة الكهل الذي صار يتركه يتحدث، ويعجن التربة التي صارت مثل شحم الحيوان، ويشكل كل نماذج السدود، ويضعها في وعاء فيه مياه ضحلة، ويحاول محاكاة تموجات المياه، أو يأخذ اللوح ويرسم عليه مخطط السد من جهة البحر كما يُفترض أن يكون وفق تصوره. ما كان يرتاح لصحبة أولئك الذين رافقوه على مقعد الدراسة، ويبدو أنهم بدورهم لم يرتاحوا للحالم، ومع عودة الشتاء وهجوم الصقيع، ثابر على التجول بعيداً ووصل إلى أماكن لم يطأها من قبل بعد السد إلى أن صارت صفحة المياه الشاسعة المغطاة بالجليد أمامه.

في شهر شباط ومع استمرار الصقيع عُثر على جثث جرفتها المياه؛ واستقرت هناك على المياه المتجمدة عند المرفأ المفتوح.

وقفت أمام الكهل هايين صبية كانت هناك في القرية حين نقلوا الجثث. صاحت: «لا تظن أنهم بدوا مثل البشر» لا كانوا مثل شيطان البحر! رؤوس ضخمة إلى هذا الحد، وباعدت بين ذراعيها الممدودتين، «كالحي السواد، ومشرقين مثل خبز طازج! قضمتها سراطين البحر؛ وكان الأطفال يصرخون بحدة لرؤيتها!»

ما كان الأمر بالجديد على الكهل هايين: «جرفهم البحر من تشرين الثاني! قال برباطة جأش».

وقف هاوكه صامتاً قربه، لكن ما إن أتيحت له الفرصة حتى تسلل إلى السد؛ لم يكن هناك من فسحة للكلام، وأراد البحث عن المزيد من الموتى، أو أنه كان مدفوعاً بالرعب وحده الذي يفترض أنه يخيم الآن على الأماكن المهجورة. مضى بعيداً بعيداً، إلى أن صار وحيداً في القفر، حيث لا شيء سوى الرياح التي تعصف بالسد، حيث الخواء الذي لا يشوبه سوى صياح الطيور الكبيرة، التي كانت تحوم وتنقض حوله؛ على يساره الدرب الترابي العريض الفارغ، وعلى الجهة المقابلة الشاطئ العصي على الرؤية المغطى الآن بالجليد كما لو أن العالم بأسره في كفن أبيض.

ظل هاوكه واقفاً في الأعلى على السد، وعيناه الحادتان تجولان بعيداً؛ لكن لم يكن هناك موتى؛ فقط هناك حيث دوامات العاصفة كانت قطع الجليد تعلو وتنخفض في خطوط عاصفة.

مضى إلى الدار؛ لكن في إحدى الأمسيات التالية خرج من جديد. تشقق الجليد في كل مكان؛ وتصاعد من الشقوق ما يشبه سحابات الدخان، وخيم على المياه شبكة من البخار والضباب اندمجت بشكل غريب بعتمة المساء. حدق هاوكه بعينين جامدتين؛ إذ بدا طيف وسط الضباب ثم اختفى، بدا له أن الطيف أكبر من أن يكون رجلاً. كانت أطياف مهيبة لها إيماءات نادرة مرعبة؛ طويلة الأنوف والأعناق، رآها تتنزه بعيداً جيئة وذهاباً على الشقوق التي تنفث الدخان، وفجأة بدأت تتقاذف مثل المجانين، انقضت الكبار على الصغار، وارتطم الصغار بالكبار؛ ثم تباعدت وتلاشت كل الأطياف.

«ما الذي أرادوه؟ هل هي أرواح الغرقى؟ هذا ما جال في خاطر هاوكه». من هناك صاح بصوت عال في الليل؛ لكن لم يتلق ردّاً على صيحته، وتابعت الأطياف سلوكها الغريب.

خطر على باله أشباح البحر النرويجية المرعبة التي سبق أن حكى له عنها قبطان عجوز وعلى أعناقها بدلاً من الوجه كومة من الأعشاب البحرية؛ لكنه لم يفر بل ثبت قدميه في الطمي الذي غطى السد، وثبت نظره على ذلك الهراء الهزلي الذي جرى وسط الظلام المخيم أمام عينيه. «هل أنتم هنا عندنا؟» قال بصوت صارم. «يجب عليكم عدم خداعي!».

وفقط حين غطى الظلام كل شيء مشى بخطوات حازمة إلى الدار. لكن تعالى وراءه ما يشبه صخب الطيور ورجع صياحها. لم يلتفت إنما لم يسرع خطاه ورجع في وقت متأخر إلى الدار: لكنه لم يحك قطُّ لوالده أو لأي أحد آخر ما جرى. فقط بعد سنوات كثيرة لاحقة أخبر ابنته الغبية التي منحه إياها الرب في نفس اليوم تقريباً والتي اصطحبها معه على مدى سنوات إلى السد، وأشار إلى الأطياف فوق المياه؛ لكنه قال لها إنه يجب عليها ألا تفزع، فهذه لم تكن سوى طيور البلشون والغربان التي تبدو وسط الضباب كبيرة إلى هذا الحد ومخيفة وهي تصطاد الأسماك في عرض البحر.

«يعلم الله يا سيدي!» قطع مدير المدرسة حديثه وأردف «هناك على الأرض الكثير من الأمور التي يمكن أن تضل قلب المؤمن الحقيقي؛ إنما هاوكه لم يكن مجنوناً ولا غبياً».

وبما أنني لم أرد بشيء فقد أراد المتابعة لكن وسط الرواد الذين أصغوا حتى الآن دون صوت، واكتفوا بملء الغرفة بغيوم التبغ، بدأت حركة مفاجئة؛ كانت فردية في البداية ثم التفت الجميع نحو النافذة. هناك في الخارج يرى المرء عبر النافذة غير مسدلة الستار كيف قادت العاصفة الغيوم، وتداخل النور والعتم؛ لكن بدا حتى بالنسبة لي أنني رأيت الفارس النحيل على حصانه الأشهب.

«انتظر قليلاً حضرة مدير المدرسة!» قال المشرف على السد بهدوء.

«لا داعي للخوف حضرة المشرف!» رد الراوي ضئيل الجسد «أنا لم أهنه وليس لدي سبب للقيام بهذا»؛ وحدق به بنظرته الذكية.

أجل، أجل، قال الآخر، وتركهم يملؤون كأسه. ثم، وبعد أن أدار الحضور وجوههم التي شحبت بعض الشيء باتجاهه من جديد تابع حكايته:

«هكذا كان الأمر بالنسبة إليه، وترعرع هاوكه ليصبح شاباً طويلاً ونحيلاً وهو يفضل الريح والماء وصور الوحدة التي كانت تعاوده.

ومضى أكثر من عام بأسره، ولأول مرة تغير الحال معه، وتعلق الأمر بهر الأنغورا الأبيض الذي جلبه الابن عاثر الحظ لأمه العجوز ترين يانس من رحلته البحرية إلى إسبانيا. عاشت ترين بعيداً بعض الشيء عن السد في كوخ صغير، وحينما كانت العجوز تقوم بمهامها المنزلية، كان القط المتكاسل يحرص على الجلوس على عتبة باب الكوخ يستمتع بشمس النهار وعيناه تتابعان الطيور الحائمة وهي تزقزق. ما إن يقصد هاوكه المكان حتى يستقبله القط بالمواء، فيومي له هاوكه برأسه، لأن كليهما عرف ما هو قائم بينهما.

لكن ذات مرة في مطلع العام، كان هاوكه كعادته جالساً على السد والماء بعيد في الأسفل، بين قرنفل الشاطئ والقريص تاركاً جسده لأشعة الشمس الساطعة. سبق له قبل أيام هناك في أعلى الربوة ملء جيوبه بالحصى، وحين حل وقت جزر المياه، وأخذت الطيور الصغيرة تبحث عما تأكله وهي تسير على الطمي وتطلق

صيحاتها، أخذ حجراً وقذفه باتجاه الطيور. تدرب على هذا منذ نعومة أظفاره، وفي معظم الأحيان كان أحد طيور المجموعة يبقى مرمياً؛ إنما كان يحجم في معظم الأحوال عن الخوض في الماء لجلبه. خطر على بال هاوكه اصطحاب القط وتدريبه كما لو كان كلب صيد. توفر في المكان مواقع ثابتة وحجارة كان بإمكانه السير عليها لجلب غنيمته بنفسه. كان القط جالساً في مكانه على العتبة حين عودته، ثابر على المواء بجشع إلى أن رمي له هاوكه أحد الطيور التي حصل عليها.

ولما عاد اليوم وسترته معلقة بكتفيه، كان معه طير لم يعرف نوعه، كان مزداناً بالألوان وله ملمس بنعومة الحرير وألق المعدن، بادره الهر بالمواء كالعادة لكن هاوكه لم يرغب هذه المرة بالتخلي عن طائره الملون، الذي ربما كان من طيور الرفراف، لذا لم يأبه بجشع الحيوان. «ارجع!» صاح فيه «اليوم حصتي وغداً حصتك»؛ ليس هذا بطعام لقط! لكن القط تسلل بخُطا حذرة؛ وقف هاوكه وحدق فيه، الطائر معلق في يده، والقط واقف متحفز. لم يعرف الفتى صديقه القط حق المعرفة؛ فما إن أدار له ظهره وشرع في السير حتى أحس برعشة وبأن غنيمته قد انتزعت

منه، وبمخلب حاد يشق لحمه. شعر شعوراً بالغيظ حوّل القط إلى حيوان مفترس، أطبق على عنق القط مثل مجنون. أمسك حانقاً بقبضتيه الحيوان القوي وخنقه حتى جحظت عيناه ولم ينتبه إلى أن المخالب القوية شقت لحمه. هكذا! صاح وأطبق قبضتيه: سنرى من هو الأقدر على الصمود!

فجأة ارتخت قائمتا القط الضخم الخلفيتان، تراجع هاوكه بضع خطوات، وقذف به باتجاه كوخ العجوز. لم يتحرك القط، وتابع طريقه باتجاه الدار.

لكن هر الأنغورا كان مدلل سيدته؛ كان شغلها اليومي والوحيد الذي تركه لها ابنها البحار بعد أن لاقى مصرعه، هنا على الساحل، وهو يحاول مساعدة أمه في صيد سرطان البحر. ما كاد هاوكه يجتاز مئة خطوة، وهو يحاول قطع نزيف جراحه بمنديله حتى اخترق أذنيه عويل وصخب من جهة الكوخ. استدار ورأى العجوز على الأرض؛ وشعرها الرمادي يتطاير حول غطاء رأسها الأحمر: «ميت!» صرخت «ميت!» وأشارت بيدها الناحلة إليه: «أنت بالتأكيد ملعون! ضربته حتى الموت، أيها المتسكع على الشاطئ عديم النفع؛ لم تكن جديراً أن تنظف

ذيله!» ألقت بنفسها على الحيوان ومسحت بمئزرها دماءَه التي ما زالت تسيل من خطمه وأنفه؛ وانتصبت واستأنفت عويلها.

«هل ستنتهين من هذا قريباً؟» صاح هاوكه مخاطباً إياها ثم قال سأدبر لك قطاً يرضى بدماء الفئران والجرذان.

بعد هذا مضى قدماً! في طريقه، وبدا أنه لا يبالي بشيء. لكن لا بدّ أن القط الميت أربك عقله لأنه عندما وصل إلى البيوت، تجاوز دار والده والدور الأخرى وقطع درباً طويلاً باتجاه الجنوب، ووصل إلى سد المدينة.

وفي تلك الأثناء تجولت ترين يانس بدورها في الاتجاه ذاته؛ حملت في يدها بعناية غطاء وسادة أزرق قديماً كما لو كان طفلاً واحتضنته؛ تطاير شعرها الرمادي تحت تأثير هبات نسمات الربيع. «ما الذي تحملينه يا ترين؟» سألها مزارع صادفته في طريقها. «ما يتجاوز في قيمته بيتك ومزرعتك» كان رد العجوز؛ ثم تابعت طريقها غاضبة. وحين اقتربت من دار العجوز هايين الواقع في أسفل الطريق سلكت الدرب المعشوشبة التي تصل بشكل غير مباشر بين السد و البيوت في الأسفل.

وقف الكهل هايين أمام الباب ونظر يتفحص الطقس ما الأمر ترين! «قال لها» وهي تلهث وتغرس عكازها في التربة. «ما الذي تحملينه في كيسك هذا؟» دعني أولاً أدخل الغرفة يا تيدة هايين! بعدها سترى «وحدقت عيناها فيه بلمعان غريب».

«هيا تفضلي!» قال الكهل. أثرت فيه نظرات العجوز المعتوهة.

وما إن دخلا حتى بادرته قائلة: «اجلب علبة التبغ القديمة وأدوات الكتابة من على الطاولة - ما الذي عليَّ كتابته؟... عليك تنظيفه؟؟؟.

نفذ الكهل الذي اجتاحه الفضول، كل ما قالته؛ بعدها أخذت غطاء الوسادة الأزرق من طرفيه، وأفرغت جسد القط الضخم الميت الذي صار على الطاولة. «هو من اقترف هذا!» صاحت وأردفت «ابنك هاوكه ضربه حتى الموت»، وتلا ذلك بكاؤها المثير للشفقة؛ عانقت القط ذا الفراء الكث، جمعت كفيه، وقربت انفها الطويل من رأسه وتمتمت بكلمات تحبب غير مفهومة في أذنه.

نظر تيدة هايين إلى القط. «هكذا إذن، ضربه هاوكه حتى الموت؟» لم يدر كيف يجب عليه التصرف مع المرأة المولولة.

نظرت إليه العجوز متجهمة: «أجل، أجل، الرب يعرف من اقترف هذا!» ومسحت بيدها التي أوهنها داء النقرس دموع عينيها. «لم يعد لدي ولد، لقد مات! قالت شاكية».

«ونحن العجائز نعرف أنه بعد عيد كل القديسين تتجمد الأقدام ليلاً في السرير، وبدلاً من أن ننام نسمع مصاريع نوافذنا تئن من وطأة الرياح الشمالية الغربية. لا أحب الإصغاء لهدير تلك الريح يا تيدة هايين، فهي تهب من هناك حيث غرق ولدي في الطمي».

أومأ تيدة هايين برأسه، وداعبت العجوز فراء هرها الميت: استأنفت حديثها وقالت أما هو، فحين أجلس إلى دولاب الغزل في الشتاء، كان يجلس قربي عند قدمي ويتابعني بعينيه الخضراوين! وعندما أتسلل وأندس في السرير هرباً من البرد، لا يتأخر طويلاً، بل يقفز إليَّ ويندس عند قدمي المجلدتين، وهكذا ننام معاً كما لو أن ابني، كنزي، ما يزال معي في السرير!

كما لو أن العجوز أرادت من خلال هذه الذكريات كسب تعاطف، ونظرت إلى الرجل العجوز الجالس قبالتها بعينيها المتألقتين بالدمع؟

لكن تيدة هايين قال بتأن: «لدي نصيحة لك يا ترين يانس» وراح باتجاه صندوقه، وتناول من الدرج قطعة نقد فضية تقولين إن هاوكه قضى على حياة هرك، وأنا أعرف أنك لا تكذبين، إليك قطعة نقد فضية عليها صورة كريستيان الرابع؛ يمكنك شراء جلد خروف مدبوغ لتدفئة قدميك الباردتين! وحينما ستضع قطتنا جراءها في المرة القادمة يمكنك أخذ أضخمها الذي يمكن أن يعوضك عن قط الأنغورا الذي أنهكته السنون! خذي الحيوان إلى محل المحنط في المدينة، وهكذا تحتفظين بالحيوان الذي دنَّستِ طاولتي بوضعه عليها.

وخلال هذا الكلام كانت يد العجوز قد أطبقت على الكرون الفضي ودسته في جيب صغير تحت تنورتها، ثم وضعت القط من جديد في كيس الوسادة الأزرق وراحت باتجاه الباب لا تنسى الهر الصغير! صاحت مخاطبة إياه...

وبعد مرور بعض الوقت، والكهل يقطع البيت ذهاباً وإياباً، دخل هاوكه ووضع الطير على الطاولة، ولما لاحظ أثر بقعة الدم التي ما زالت واضحة وسأل كما لو كان الأمر عارضاً: «ما هذا؟»

ظل الأب واقفاً: «إنه الدم الذي سفكته!»

حدق الشاب في وجهه بثبات: «هل كانت ترين يانس وقطها هنا؟»

أومأ الكهل برأسه «لماذا ضربته حتى الموت؟»

كشف هاوكه ذراعه المدماة هذا هو السبب قال ثم أردف: «سرق مني الطائر!»

لم يقل الكهل شيئاً؛ باشر بقطع الغرفة ذهاباً وإياباً بعض الوقت ثم وقف في مواجهة الشاب بدا مثل الساهم: «حللت موضوع القط لكن انظر يا هاوكه البيت صغير جداً بحيث لا يتسع لسيدين، لقد حان الوقت وعليك الاهتمام بشؤونك بنفسك!»

«أجل يا والدي، رد هاوكه وأردف، هذا ما دار في خلدي أيضاً!».

«لماذا؟» سأله الكهل.

«يصاب المرء بالكآبة عندما لا يتمكن من ممارسة عمل منتظم».

«هكذا؟» سأل الكهل، «ولهذا ضربت هر الأنغورا حتى الموت؟ كان من الوارد أن يكون الوضع أسوأ!»

«قد تكون على حق يا أبي؛ لكن المشرف على السد طرد العامل الذي يعاونه في الحقل؛ و يمكنني أنا القيام بعمله!»

استأنف الكهل ذهابه وإيابه ناثراً رذاذ عصارة التبغ الأسود الذي يمضغه: «المشرف على السد مجنون! غبي مثل أوزة! صار مشرفاً فقط لأن أباه وجده سبقاه في المنصب على مدار ٢٩ عاماً، وبسبب الرشاوي التي بذلها، فعندما يتعلق الأمر بشراب المارتيني وبحسابات السد والفواتير كان يطعم مدير المدرسة أوزاً مقلياً ويسقيه خمراً ومنقوع القمح المخمر، ويجلس قربه هازاً برأسه، وقلمه يجول على جداول الحسابات ويقول: أجل حضرة مدير المدرسة ليباركك الرب! ما هي مهارته في الحساب؟ وحين يعجز مدير المدرسة أو يرفض القيام بذلك، كان عليه القيام بالعمل بنفسه، فيجلس ويكتب ويشطب، ويحمر رأسه الضخم الغبي ويحمى وتلمع العينان مثل كرات زجاجية كما لو أنه يفهم شيئاً من الأمر».

وقف الشاب قبالة والده جاهلاً ما يمكن قوله؛ فهو لم يسمع منه مثل هذا من قبل.

أجل، ليرحمنا الرب! قال هاوكه «إنه غبي تماماً لكن ابنته إيلكه تجيد الحساب!»

نظر إليه الكهل بحدة وصرخ: «هيا يا هاوكه! ما الذي تعرفه أنت عن إيلكه فولكرتس؟»

لا شيء يا أبي، كل ما في الأمر أن مدير المدرسة روى لي».

لم يرد الكهل على هذا؛ أخرج بعناية مضغات التبغ الواحدة تلو الأخرى من فمه.

قال بعدها: «أنت تظن أنك بدورك قادر على إجراء الحسابات!»

«أجل يا أبي، سيمر الأمر» كان هذا رد الابن وسمة الجدية واضحة على وجهه.

هز الكهل رأسه: «إذن عليك تجربة حظك!»

«شكراً يا أبي! قال هاوكه ومضى إلى مكان نومه على الأرض، جلس على حافة الفراش وتأمل مفكراً سبب تلميح والده حول إيلكه فولكرتس. عرف طبعاً الصبية الرشيقة ابنة الثامنة عشرة ذات الوجه الناحل والبشرة الخمرية والعينين الجسورتين والأنف الدقيق؛ إنما لم يتبادل معها بعد كلمة واحدة؛ كل ما في الأمر أنه

كان يحبذ رؤيتها كلما قام بزيارة الكهل تيدة فولكرتس، لا شأن له بالفتاة. والآن ها هوذا يشعر بالرغبة في المضي على الفور قبل أن يسبقه أحد ما، ويأخذ الوظيفة وعلى هذا ارتدى معطف يوم الأحد وأفضل أحذيته، ومضى رائق المزاج على الدرب.

كان من السهل رؤية دار المشرف على السد الممتدة طولاً من بعيد بفضل موقعها على هضبة عالية، ولا سيّما بفضل أطول شجرة في القرية، والمدخنة الهائلة؛ حيث قام جد المشرف الحالي، وهو الأول في هذا المنصب في هذه السلالة، خلال شبابه بغرس الشجر شرقي باب الدار، لكن يبست أول شجرتين وهكذا قام الرجل صبيحة عرسه بغرس الثالثة التي ما تزال قائمة بفضل بتلاتها التي تنمو باستمرار وتتمايل مع الرياح التي لا تكل كما لو أن حفيفها يذكر بالزمن الغابر.

وعندما باشر هاوكه، بقامته الطويلة بعد مسير قصير، ارتقاء الهضبة التي زرعت أطرافها باللفت والملفوف، رأى هناك في الأعلى ابنة مالك الدار واقفة أمام باب الدار المنخفض. كانت يدها الناحلة بعض الشيء متدلية، وبدا من شكل ظهرها أنها تمدها إلى حلقة من الحلقتين المعدنيتين المثبتتين على الجدار في

جانبي الباب ليتمكن من يمتطي حصانه من الوصول إلى البيت من ربط لجامه. بدا أن الصبية تنقل عينيها عبر السد باتجاه البحر والشمس تغوص في الأمسية الهادئة وسط الماء، وتكسو في الوقت نفسه الصبية المسمرة بآخر إشعاعاتها المذهبة.

ارتقى هاوكه الهضبة ببطء وفكر في سريرته: «لا تبدو ساهمة كثيراً!» وصل إلى الأعلى «طابت أمسيتك!» قال وسألها «إلى ماذا تنظرين بعينيك الواسعتين آنسة إيلكه؟»

أنظر إلى كل ما يتبدى لي كل مساء، ردت عليه وأردفت لكن هنا لا يختلف المشهد في العشيات. تركت الحلقة المعدنية تفلت من يدها، لترتطم بالجدار مقرقعة. سألته «ما الذي تريده يا هاوكه هايين؟.

«أمر آمل ألا يُرد» أجابها هو. «طرد والدك خادمه، وظننت أنني يمكن أن أكون في خدمته!»

تركت عينيها تتفحصانه وقالت «ما تزال طري العود يا هاوكه! لكن نحن نحتاج إلى عينين ثابتتين أكثر من احتياجنا ليدين صارمتين! ونظرت إليه بحدة لكن هاوكه صمد أمامها فقالت اتبعني سيد الدار في غرفته دعنا نوافيه!

وفي يوم آخر دخل تيدة هايين مع ابنه إلى غرفة المشرف على السد الواسعة، الجدران مغطاة بلوحات من قرميد زجاجي، تتخذ هنا شكل سفينة بأشرعة مسدلة، أو صياد وصنارته في ساحة المرفأ، وهناك بقرة ترعى أمام بيت فلاح، مشاهد يمكن أن ترضي الناظر؛ لكن تقطعها خلفية ثابتة مكونة من سرير جداري مغلق المصراعين الآن، وخزانة جدارية، يمكن أن نلمح عبر بابيها الزجاجيين تحفاً من الخزف والفضة؛ وإلى جانب الباب علقت ساعة هولندية خلف حاجز زجاجي.

جلس سيد الدار متين البنية والعدواني بعض الشيء إلى طرف المائدة في مقعد وثير على وسادة ملونة. وضع يديه على بطنه وحدق بعينيه الدائرتين برضا في هيكل عظمي لبطة سمينة؛ والملعقة والسكين مستقرتان في الصحن أمامه.

«طاب يومك حضرة المشرف!» قال هايين، فأدار الرجل المتحفظ رأسه وعينيه ببطء باتجاهه.

«أهذا أنت تيدة؟» وكان صوته شبيهاً بصوت البطة السمينة. «تفضلوا بالجلوس؛ يا للريح الطيبة التي ساقتكما إلي!»

«جئت، حضرة المشرف» قال تيدة هايين، وهو يجلس على زاوية المقعد المحاذي للجدار قبالة جليسه. «يبدو أن عاملكم خيب ظنكم، واتفقت مع ابني أن يحل محله.

أجل أجل يا تيدة لكن - ما الذي تقصدونه بخيبة الظن؟ فنحن مسيرون ولا نملك مخالفة إرادة الرب!»

وأمسك بالسكين وقرع بها على سبيل المداعبة على هيكل البطة المسكينة. «كانت طائري المحبوب»، وأردف ضاحكاً؛ لقد عضت يدي!

«ظننت»، قال الكهل هايين متجاهلاً الآخر «أن القنفذ تسبب لك بضرر في الإسطبل».

«ضرر؟» أجل يا تيدة، حقاً ما يكفي من الضرر! لم يسق ذلك الكلب البدين العجول، بل استلقى سكرانَ على التبن، وظلت الدواب تخور طيلة الليل من العطش بحيث فُرض علي النوم حتى منتصف النهار؛ لا يمكن أن تسير الأشغال بهذه الطريقة!»

«لا، حضرة المشرف إنما لا مجال لحدوث هذا مع ابني».

وقف هاوكه في فرجة الباب ويداه في جيبيه، حاسر الرأس ينظر عبر قضبان النافذة المقابلة.

رفع مشرف السد عينيه نحوه وهز برأسه: لا يا تيدة، لا «وأومأ للكهل وقال: هاوكه لن يزعج راحتي في الليل؛ سبق لمدير المدرسة أن قال لي إنه يفضل الجلوس إلى لوح الحساب على الجلوس لشرب كأس نبيذ معتق».

لم يسمع هاوكه هذا المديح لأن إيلكه دخلت الغرفة، وأخذت من على الطاولة بيدها الرشيقة بقايا الوجبة ورمقته بعينيها الغامقتين بنظرة عابرة.

وعندها تفحصتها عيناه. «باسم الرب والمسيح» قال في سريرته «إنها لا تبدو ساهمة أو غبية!»

كانت الصبية قد مضت. أنت تعرف يا تيدة» استأنف المشرف كلامه «الرب سيدنا ضن علي بابن!»

«أجل، يا حضرة المشرف؛ إنما لا تدع هذا يضنيك» عارضه جليسه فمع الجيل الثالث لا بدّ من تآكل مكانة العائلة كان جدكم أحد حماة هذه البلاد، وهذا أمر يعرفه الجميع. بعد وهلة من استرجاع الذكريات بدا المشرف مرتبكاً بعض الشيء. «ما الذي تقصده بهذا تيدة هايين؟»

ونهض عن مقعده الوثير وقال «أنا هو الجيل الثالث!»

«أجل! لم أقصد الإزعاج حضرة المشرف؛ هذا هو القول المأثور!» ونظر تيدة هايين الأشيب إلى العجوز بعينين شريرتين نوعاً ما ...

لكن هذا تكلم غير عابئ: «يجب عليكم يا تيدة هايين عدم التأثر بحماقات وثرثرات العجائز، كل ما في الأمر أنكم لا تعرفون ابنتي التي تساوي ثلاثة مني شخصياً! أنتم تريدون القول إن ابنك هاوكه سيكون قادراً على تحقيق أرباح في الحقل، وهنا في بيتي بفضل الربيع أو بأقلامه الملونة دون أن يتسبب ذلك له بضرر!».

«أجل أجل يا حضرة المشرف؛ أنتم محقون تماماً» قال الكهل هايين، وبدأ يضع بعض الشروط التي تؤمن إكراميات ليدرجها في العقد وهي أمور لم تخطر على بال ابنه قبل ذلك. وهكذا صار بإمكانه الحصول في الخريف، بالإضافة إلى ثيابه الكتانية، على ثمانية أزواج من الجوارب الصوفية إضافة إلى أجره؛ وأنه يريد منه أن يعمل لديه ثمانية أيام خلال الربيع وغير ذلك، لكن

المشرف على السد وافق على كل هذا إذ بدا له أن هاوكه هايين هو العامل المناسب.

ليحفظك الرب يا فتى! «قال الكهل ما إن غادرا الدار،» هو الذي سيوضح لك حقيقة العالم.

لكن هاوكه رد بهدوء: دعه وشأنه يا أبي، سيكون كل شيء على ما يرام.

ولم يكن هاوكه مخطئاً؛ فالعالم وبالأحرى العالم في نظره ازداد وضوحاً. وكلما طالت إقامته في تلك الدار، وربما أكثر من ذلك، قلت حالات حصوله على معونة من الأعلى، ومِن ثَمَّ اضطر للاعتماد على قوته التي لم تخذله قط.

كان هناك رجل في الدار لم ير أنه الشخص المناسب؛ وكان هذا هو رئيس عمال المزرعة أولة بيترس الشغيل الذكي صاحب المهارات الجاهزة. فبالنسبة له كان العامل البطيء لكن الغبي وقوي البنية أفضل، فهو كان قادراً على رمي طن من الشوفان على كتفيه وجعله ينشرها وفق مزاجه.

لكنه لم يكن قادراً على التصرف هكذا مع هاوكه الأكثر هدوءاً والأطول قامة، والذي كان يرمقه بنظرة فريدة من نوعها.

فعلى الرغم من أنه تمكن من تشغيله في أعمال لا تمثل خطورة على جسده غير مكتمل البنيان، ولما كان رئيس عمال المزرعة يقول: «كان عليك رؤية نيس البدين كيف يحمله بيد واحدة».

كان هاوكه يستجمع قواه وينجز العمل بكد. وكان من حظه أن إيلكه نفسها أو عبر والدها كانت في معظم الأحوال تعرف كيف تضع حداً لهذا.

قد يطيب للمرء التساؤل ما الذي يمكن أن يجمع بين شخصين غريبين تماماً؛ ربما لأن كليهما ولد موهوب في الحساب، ولم تكن الصبية تتحمل رؤية رفيقها يهلك في العمل الشاق.

لم يتحسن حال الشقاق بين رئيس عمال المزرعة ومعاونه خلال الشتاء بعد عيد القديس مارتن موعد مراجعة مختلف حسابات السد .

كانت عشية من أيام شهر أيار لكن الطقس مثل تشرين الثاني؛ فمن داخل الدار كان المرء يسمع صخب اللجة وراء السد.

«هيا يا هاوكه» قال سيد الدار، «تعال؛ سنرى إن كنت ستبرهن على إتقانك الحساب!» فرد هاوكه: «لكن يا معلمنا»،

هكذا ينادي الناس هنا حضرته، «يجب علي أولاً إطعام العجل الصغير!»

«إيلكه» نادى المشرف؛ «أين أنت يا إيلكه! امض إلى أولة وقولي له إن عليه إطعام العجل؛ على هاوكه القيام بالحسابات!.» هرعت إيلكه إلى مقر رئيس عمال المزرعة وأوعزت إليه بتنفيذ الأمر، كان مشغولاً بربط الحصان الذي عمل طوال اليوم في مكانه.

ضرب أولة بيترس اللجام بوتد الربط حيث كان ينجز عمله كما لو أنه أراد باختصار قول: «ليأخذ الشيطان سكرتير الكتابة الملعون[1]!»

سمعت الصبية الكلمات وهي تغلق باب الغرفة.

«ما الأمر؟» سأل العجوز لدى دخولها الغرفة. «سيهتم أولة بالأمر» قالت الابنة وهي تعض على شفتيها، وجلست قبالة هاوكه على مقعد خشبي شبه متآكل، كما هي عادتها في عشيات الشتاء. جلبت من درج جورباً أبيضَ مزيناً بطيور حمراء وتابعت حبكه؛ يمكن أن تكون تلك المخلوقات طويلة السيقان طيور البلشون أو

(١) المقصود التقليل من قدر هاوكه المتمكن من الكتابة.

لقالق. جلس هاوكه قبالتها غارقاً في حساباته، في حين استرخى المشرف على أريكته الوثيرة وعيناه ترمقان خنجر هاوكه على الطاولة حيث وضع، كالعادة في دار مشرف السد شمعتان من الشحم الحيواني وقبالتهما نوافذ محكمة الإغلاق تم إحكام مصاريعها من الخارج وشدها من الداخل، ولتجن الرياح كما يحلو لها.

كان هاوكه، من حين لآخر، يرفع رأسه عن عمله ويرمي بنظرة باتجاه الجورب المزين بالطيور أو نحو وجه الصبية الهادئ.

وفجأة علا من جهة الكرسي الوثير شخير عال، فتبادل الشابان نظرة وابتسامة؛ تلتها تنهيدة ارتياح؛ صار بإمكان المرء الثرثرة بعض الشيء، لكن هاوكه لم يعرف من أين يبدأ.

وحين رفعت الصبية الجورب بحيث ظهرت الطيور بكامل طولها همس عبر الطاولة: «أين تعلمت هذا يا إيلكه؟»

«تعلمت ماذا؟ ردت الصبية».

حبك الطيور، قال هاوكه.

«هذا؟» من ترين يانس هناك قرب السد؛ هي تعرف كل شيء، وسبق لها الخدمة لدى جدي لبعض الوقت هنا في الدار.

«لكن وقتها لم تكوني قد ولدت بعد؟» سأل هاوكه.

«أظن أن هذا مؤكد؛ لكن لطاما ترددت على الدار».

«هل أحبت الطيور؟ سأل هاوكه؛» ظننت أنها لم تحب سوى القطط!

هزت إيلكه رأسها: «هي ربت البط و كانت تبيعه؛ لكن في بداية العام السابق، حين ضربت أنت قط الأنغورا حتى الموت، أتت هي إلى صالة المراقبين؛ فهي أرادت بناء منزل آخر أمام بيتها».

«هكذا!» قال هاوكه مصدراً صفيراً من بين أسنانه «لهذا أخذت طيناً وحجارة! لكنها تأتي عبر الطريق من داخل السد! هل لديها تصريح؟»

«لا أدري!» قالت إيلكه. لكنه لفظ الكلمة الأخيرة بصوت عال إلى حد أيقظ المشرف على السد من غفوته ليقول: «أي تصريح؟» سأل ونقل عينيه بسرعة بين الاثنين. «ما هو موضوع التصريح؟»

ولما بين له هاوكه المسألة، ربت بيده على كتفه ضاحكاً: «ماذا في الأمر؟ الطريق الداخلي عريض بما يكفي؛ ليحفظ الرب مشرف السد هل يجب عليه الاهتمام أيضاً بحظائر البط!»

أدرك هاوكه أن العجوز أهدت بطات للمراقبين، وأراد التعبير عن اعتراضه. «لكن يا معلمنا» قال مستأنفاً حديثه لا ضرر من التنبيه والتحذير وأنتم لا تريدون الاستيلاء عليها بنفسكم كما أود تحذير المراقبين الذين يفترض بهم الاهتمام بنظام السد!

«كيف، ما الذي تقوله أيها الشاب؟» وتحفز في مقعده في حين تركت إيلكه جوربها المزين يسقط و أصغت السمع.

«أجل يا معلمنا، تابع هاوكه» أنتم عقدتم اجتماع الربيع[1]؛ وعلى الرغم من ذلك فإن بيتر يانسن لم يقتلع الأعشاب الضارة من أرضه؛ وفي الصيف ستأتي الحساسين لتحوم حول الأزهار الشوكية الحمراء! وبالقرب منه، وأنا لا أعرف ملكية من، في الجهة الخارجية ثمة فتحة في جسم السد؛ وحين يحلو الطقس يتجمع هناك الأولاد الصغار ويحومون؛ لكن ليحفظنا الرب من المد!

اشتد اتساع حدقتي مشرف السد.

«وبعد ذلك» تابع هاوكه.

---

(١) اجتماع دوري لمناقشة خطط الصيانة.

«ماذا بعد ذلك أيها الشاب؟» سأل مشرف السد؛ «ألم تنته بعد؟» وبدا من نبرته أن ما قاله مستخدمه فوق ما يطيق.

«أجل يا معلمنا» قال هاوكه مستأنفاً حديثه «أنتم تعرفون فوللينا البدينة ابنة المستشار هاردرس، التي تمتطي صهوة حصان أبيها وتخوض في المستنقع بل حتى حين تجلس على صهوة الفرس العجوز الصهباء هي وعجولها السمينة يختل بشكل غير مباشر خط تصريف السد».

وهنا لاحظ هاوكه أن عيني إيلكه الذكيتين مركزتان عليه وهي تومئُ برأسها موافقة.

سكت، لكن ضربة يد المشرف على الطاولة اخترقت أذنيه؛ يبدو أن الطقس يضرب في الداخل! صاح وارتعش هاوكه تقريباً من صوت الدب الذي اقتحم المكان فجأة: «الغرامة المالية! سجل لي غرامة بحق تلك البدينة يا هاوكه! العاهرة سرقت مني في الصيف الماضي ثلاث بطات صغيرة! سجل الغرامة، قال مكرراً كلامه ولما تردد هاوكه قال «بل أظن أن العدد كان أربعاً!» مهلاً أبتاه «ألم تكن القضاعة هي التي أخذت البطات؟» «قضاعة ضخمة! صاح العجوز وهو ينفخ أنفاسه»

هل بإمكانك التمييز بين فولينا البدينة والقضاعة! لا! لا، أربع بطات يا هاوكه، لكن في ما يخص ثرثرتك أقول إن السيد كبير مشرفي السدود وأنا، وبعد أن تناولنا الإفطار هنا في داري، قصدنا في مطلع العام منطقة الأعشاب الضارة والفتحة في جسم السد، لكننا لم نتمكن من رؤية شيء. بعدها أشار ببطء إلى كل من هاوكه وابنته شكراً للرب لأنكما لستما مشرفين على السد. يمتلك المرء عينين فقط لكن عليه النظر بمئة عين. اهتم يا هاوكه بالحسابات أكثر من اهتمامك بالتطريز لأن الشباب يجرون الحسابات بطريقة خاطئة في كثير من الأحيان!

ثم عاد إلى أريكته ومدد جسمه الثقيل إلى أن استقام وضعه وغاص من جديد في هجعة لا يعكر صفوها شيئاً.

تكرر الأمر في أمسيات كثيرة. كانت عينا هاوكه ثاقبتين، وحينما كان يجالس المشرف لم يكن يفوت فرصة لفت انتباهه إلى أي تقصير أو إهمال في شؤون السد؛ وبما أن الرجل لم يكن قادراً على حسم كل الأمور؛ تسللت هكذا إلى إدارة السد حيوية بعد أن كانت الإدارة في السابق توغل في الأخطاء، فإذا بأفراد الإدارة يُفاجَؤُون بمن يشير إلى تلك الأخطاء والخطايا ويعرفون بأن

هناك من يفاجئهم بالإشارة إليها، ويسقط في أيديهم ويستغربون من أين تأتي تلك الضربات. أما أولة رئيس عمال المزرعة فلم يكن يفوت فرصة نشر الإشاعات وتوجيهها ضد هاوكه وضد والده، الذي يجب أن يشارك في حمل مسؤولية الأخطاء بهدف حشد رأي معارض ضمن هذه الحلقة من المراقبين ممن لم تمسهم المسألة أو ممن لم يكن لهم شأن بالموضوع والذين كانوا يضحكون لأن الشاب فرض على العجوز التحرك والهرولة. من المؤسف أن القنفذ لا يمتلك أرضاً خاصة به يسند إليها قدميه؛ وإلا لكنا حصلنا من جديد على مشرف سد، كما حصل فيما مضى؛ لكن مساحات الأرض المحدودة العائدة لوالديه لا تفي بالغرض!

وحين حل فصل الخريف وجاء السيد آمتمان وكبير مشرفي السدود لحضور الاجتماع التشاوري حول السد، رمق العجوز تيدة فولكرس من هامته حتى قدميه حين دعاه لتناول وجبة الإفطار. حقاً حضرة المشرف على السد، قال له، دار في خلدي أنكم جددتم شبابكم بمقدار عشر سنوات؛ لقد تمكنتم هذه المرة من إثارة حماسي بمقترحاتكم؛ لو أننا نستطيع إنجازها كلها اليوم!

«ستكون الأمور بخير، ستكون على ما يرام حضرة كبير مشرفي السدود كثير المخاوف» رد العجوز مبتسماً؛ «فالأوزة المشوية ستشد من قواك! أجل، شكراً للرب مازلت على الرغم من كل هذا الوقت متعشاً ودائم السرور!»، وتلفت حوله ليتأكد إن كان هاوكه في طريقه إلى الدار ثم أردف بهدوء مثير للإعجاب: «وأنا أتمنى من الرب أن أستمر في نعيم منصبي بضع سنوات».

وهنا نهض كبير المشرفين ورد على جليسه «ولهذا يا عزيزي مشرف السد سنشرب كأساً نخب هذا!»

أما إيلكه التي قدمت الفطور فمضت، وهي تسمع قرع الكأسين، بابتسامة خفيفة، عبر باب الغرف. بعدها جلبت من المطبخ وعاء فيه بقايا طعام، وعبرت الإسطبل حتى الباب الخارجي ورمته للدواجن. وقف هاوكه هايين في الإسطبل يطعم البقر، الذي ظل حبيس الإسطبل بسبب رداءة الأحوال الجوية ويضع بالمذراة التبن في المعلف. لكن حين رأى الصبية قادمة أراح المذراة على الأرض.

«ما الأمر إيلكه!»

ظلت واقفة وحدقت فيه: «كان من المفترض أن تكون في الداخل!»

«هل هذا رأيك ؟ ولماذا يا إيلكه؟»

«السيد كبير المشرفين مدح المضيف!»

«المضيف»وما شأني بهذا؟

«لا أقصد أن مشرف السد هو الذي مدحه!»

اكتسى وجه الشاب بلون أرجواني وقال: «أنا أعرف إلى أين تريدين الوصول!»

«لا تحمر يا هاوكه فأنت في الحقيقة من مدحه كبير المشرفين!»

نظر إليها هاوكه وعلى شفتيه شبح ابتسامة وقال: «المديح يطالك أنت بدورك يا إيلكه!»

لكنها هزت رأسها: «لا يا هاوكه؛ حين كنت المعاونة الوحيدة لم نحظ بمديح. صحيح أنني أجيد الحسابات. أما أنت فكنت ترى في الخارج كل ما يفترض بمشرف السد رؤيته؛ تفوقت علي.

«لم أرغب في هذا، على الأقل فيما يخصك أنت قال هاوكه بخجل، وأومأ برأسه إلى بقرة تقف جانبه: هي يا روتبونت، لا تلتهمي المذراة، من حقك نيل كل شيء!»

«لا تظن يا هاوكه أن هذا يؤلمني» قالت الصبية بعد تفكير؛ فهذا من شؤون الرجال!

هنا مد هاوكه يده إليها: «إيلكه أعطني يدك!»

صعدت حمرة أرجوانية وغطت بشرة الصبية السمراء القاتمة. «لماذا؟ أنا لم أكذب!»

أراد هاوكه الإجابة؛ لكنها كانت قد غادرت الإسطبل، وقف ومذراته في يده وأصغى لقرقرة وصياح البط و الدجاج.

حدث هذا في شهر كانون الثاني من السنة الثالثة من خدمة هاوكه حين تقرر إقامة حفل شتائي يسمى هنا آيس بوسلن[1]. غطى الجليد الدائم مع هدير الرياح الساحلية كل الحفر بين الأهوار بغطاء متين من الكريستال بحيث تحولت قطع الأرض

---

(١) رياضة شعبية في منطقة شرقي فيزة تتضمن رمي كتلة خشبية، ويتنافس فيها كل رجال القرية.

المتناثرة إلى ساحة عريضة تسمح بقذف كريات الخشب الصغيرة المسبوكة بالرصاص إلى أن تصل إلى هدفها. ويوماً بعد يوم هبت ريح شمالية شرقية خفيفة: كان كل شيء على ما يرام، فقد تم دعوة الضيوف من قرية كريشدورف غير البعيدة شرقاً الذين انتصروا في العام الماضي إلى المنافسة، ووافقوا على ذلك؛ تم نشر تسعة قاذفي كرة من كل جانب؛ كما تم تحديد كبير الحكام ومساعديه. وشمل المساعدين، الذين يجب عليهم التداول حول الرميات المشكوك بأمرها، والذين يجيدون تأكيد حججهم بأفضل الطرق، وكانوا على الأغلب شباباً ممن يتصفون بالفصاحة بالإضافة إلى فهم الناس بشكل صحيح. وكان رئيس عمال مشرف السد أولة بيترس في عدادهم. كان يقول «كل ما عليك هو ضرب الكرة مثل شيطان! ودع الثرثرة لي!»

كان ذلك قرابة المساء، عشية الاحتفال ظهر هناك في الغرفة الجانبية للنزل هناك في الأرض المرتفعة، مجموعة من قاذفي الكرات بهدف تقرير من سيقع عليهم الاختيار. كان هاوكه هايين في عداد من وقع عليهم الاختيار؛ تمنع في البداية على الرغم من أن مهارة يده المدربة على القذف معروفة؛ لكنه خشي أن يتم رفضه

من قبل أولة بيترس، الذي يشغل منصباً شرفياً في اللعبة، وأراد أن يوفر على نفسه ذل الهزيمة. لكن إيلكة تمكنت بعد جهد طويل من تغيير رأيه: «لن يجرؤ على القيام بشيء يا هاوكه؛ فهو ابن عامل مياوم في حين أن والدك لديه بقر وحصان وهو أكثر الرجال حكمة في القرية!»

«لكن ماذا إن تفوق علي؟»

نظرت إليه بعينيها السوداوين وعلى وجهها شبح ابتسامة وقالت: «وقتها عليه مسح فمه إذا دار في خلده فكرة مراقصة ابنة المعلم في المساء!» وهنا أومأ لها هاوكه برأسه بشجاعة.

وقف الشبان الذين ما زالوا يريدون المشاركة في اللعبة مرتجفين برداً فاقدي الصبر أمام ميدان اللعب، ونظروا إلى قمة برج الكنيسة المشيد من كتل صخرية القائم قرب الحانة.

أما حمامات القس التي تسعى خلال الصيف لالتقاط غذائها في حقول القرية فعادت من ساحات وحظائر المزارعين حيث تبحث الآن عن الحبوب واندست تحت قبة البرج حيث أعشاشها؛ وفي الشرق علا الشفق الأرجواني فوق المرفأ.

«سيكون الطقس جيداً غداً» قال أحد الشباب وأخذ يذرع المكان جيئة وذهاباً بهمة؛ «إنما سيكون بارداً! بارداً!» قال آخر، وحين لم يعد يرى الحمامات تطير قصد الدار ووقف عند العتبة التي تسرب منها نقاش حامي الوطيس؛ ثم انضم إليه العامل لدى مشرف السد. «اسمع يا هاوكه» قال له «هم يتناقشون بشأنك! وكان بإمكان المرء سماع صوت أولة بيترس الجلي: «لا شأن لعامل مشرف السد وللشباب بهذا!»

«هيا» همس الآخر وحاول شد هاوكه من كم قميصه ليبعده عن عتبة الباب، هنا يمكنك معرفة مدى قيمتك في نظرهم!

لكن هاوكه تملص منه وعاد إلى عتبة الدار ورد على الآخر: «لم يحظروا علينا التنصت!»

أمام الباب وقف شخص ثالث من الذين سجلوا أنفسهم للمشاركة وخاطبه صائحاً «أخشى أنك لن تقدر على مجاراتي» كنتُ في الثامنة عشرة من العمر قبل أن تطلب أنت شهادة المعمودية! يا هاوكه إن رئيس عمال المزرعة سيرميك خارج اللعبة!

«أجل. خارجاً» دمدم هاوكه وهو يركل بقدمه؛ «...لا تتدخل في الأمر.

اشتد الصخب في الغرفة؛ وفجأة خيم الصمت وتمكن من هم في الخارج من سماع صخب الريح الشمالية الشرقية التي تضرب قمة برج الكنيسة هناك في الأعلى. انضم إليهم المتنصت سأله ابن الثامنة عشرة: «ما الذي يدور في الداخل؟»

بشأن هذا «وأشار إلى هاوكه،» أراد أولة بيترس وضعه مع الصغار؛ لكن الكل عارضوه هنا قال ييس هانسن: «يمتلك والده دواب وأرض!». «أرض» صاح أولة بيترس هي صغيرة للغاية وفي النهاية صاح أولة هنسن «صمتاً» أريد أن أعلمكم: قولوا فقط من هو الرجل الأول في القرية؟ هنا صمت الناس ثم ارتفع صوت قائلاً: إنه مشرف السد دون منازع! وصاح الجميع إنه مشرف سدنا! ومن هو إذن مشرف السد؟ صاح أولة هنسن مجدداً؛ لكن فكروا في الأمر بشكل صحيح! - هنا بدأ شخص بالضحك بصوت خافت تلاه آخر، بحيث لم يعد يصدح في الغرفة في النهاية سوى ضحك عال. إذن، استدعوه، قال أولة هنسن؛ أنتم لا تريدون رمي مشرف السد عبر الباب! أظن أنهم ما زالوا يضحكون لكن صوت بيتر أولة خَفت! بهذا أنهى الفتى تقريره.

وفي نفس لمحة البصر تقريباً انشق باب الدار، وصدح صوت ينادي بصوت عال ومرح في برد الليل هاوكه! هاوكه هايين!

هنا هرول هاوكه إلى الدار ولم يعد يسمع من هو مشرف السد، ولم يدر أحد بما كان يدور في رأسه.

وعندما اقترب بعد مدّة من دار معلمه، رأى إيلكة في أسفل المدخل الخلفي وكان ضياء القمر ينعكس وميضاً مرتداً عن المراعي الواسعة المكتسية بياضاً. هل ستظلين هنا، يا إيلكه؟

اكتفت بهز رأسها: «ما الذي جرى؟» قالت له: هل تجرأ على ذلك؟

- «كان عليه عدم الإقدام على ذلك!»

- «ثم ماذا بعد؟»

- أجل يا إيلكه، يحق لي خوض المحاولة غداً!

«ليلة سعيدة يا هاوكه!» وهرولت مغادرة الممشى، واختفت داخل الدار.

وتبعها متمهلاً.

على اتساع المراعي، التي تمتد شرق السد، يرى المرء في الظهيرة هناك كتلة غامقة من البشر تقف بسكون وصمت، ثم، بعد أن قذف الرامي مرتين الكرة الخشبية على التربة التي حررتها أشعة شمس النهار التي ارتفعت، متجهة من جهة صف البيوت الواطئة الطويل الذي خلفته وراءها، تجمع المشاركون في لعبة كرة الجليد في الوسط، أحاط بهم الكهول والشباب، وكل من يعيشون معهم في البيوت، وكذلك أولئك الذين يعيشون بعيداً، ارتدى كبار السن معاطف طويلة، ساهمين يدخنون غلاييننهم القصيرة[1]، النساء متدثرات بالمعاطف أو بأغطية، ويسحبن الأولاد بأيديهن أو يمسكن بأذرعتهم. ومن الحفر المتجمدة، التي تم تجاوزها تباعاً، تسربت أشعة شمس بعد الظهيرة الشاحبة عبر رؤوس أعواد القصب؛ كان البرد قارساً، لكن اللعبة استمرت بلا هوادة، وواظبت كل العيون على متابعة الكرة السابحة في الهواء، التي ارتبطت بها اليوم كرامة القرية بأسرها. كان مسجلاً النقاط من الطرفين يحملان عصا ذات رأس فولاذي، بيضاء بالنسبة للمضيف وسوداء بالنسبة للضيوف، ويتم تحديد الموقع النهائي الذي وصلته الكرة في

(١) الغليون القصير الذي يستخدمه البحارة كي يخففوا من تأثير الرياح القوية.

مسارها في التربة الجليدية وسط إقرار صامت من طرف، وضحكات ساخرة من الطرف الآخر، وكان الفوز من نصيب الجانب الذي تصل كرته أولاً إلى الهدف المحدد.

قل تبادل الأحاديث؛ وفقط عندما تُنفذ رمية حاسمة يسمع المرء صيحة من الشباب أو الصبايا، أو نرى كهلاً يسحب غليونه من فمه ويتفوه بكلمات مديح للرامي مربتاً على كتفيه بالغليون: «كانت رمية، قال زخريا مفرقعاً بأصابعه ملوحاً لزوجته الواقفة في فرجة الباب، أو هكذا كان يرمي والدك بدوره؛ ليحفظه الرب في الأبدية!» أو بعض العبارات الودية الأخرى.

لم يحالف الحظ هاوكه في رميته الأولى: حين أرجع ذراعه إلى الخلف، ليضرب الكرة، بعثرت الشمس غيمة كانت تحجبها، فاخترقت أشعة الشمس عينيه، كانت الرمية قصيرة للغاية، سقطت الكرة في حفرة وظلت غارقة في الطين المتجمد.

«غير محسوبة! لا عليك! هاوكه، أعد الكرة» صاح شركاؤه.

لكن حكم الضيوف اعترض على هذا: «يجب حسابها؛ الرمية هي رمية!» أولة! أولة بيترس! «صاح شباب الأهوار، أين هو أولة؟ بحق الشيطان، أين اختفى؟»

إنما كان حاضراً: «لا تصرخوا هكذا! على هاوكه البقاء حيث وصل! هذا رأيي».

- ماذا! يجب ان يكرر هاوكه الرمية؛ كل ما عليك هو إجادة استخدام لسانك!

«هذا ما قمت به!» صاح أولة واقترب من حكم الضيوف وتبادل معه حديثاً غير مفهوم، لكن لم يلجأ هذه المرة إلى عباراته الحادة المدببة. وقفت إلى جانبه الصبية حالكة العينين ورمقته بنظر حادة من عينيها؛ لكن لم يحق لها الكلام، فما من صوت للمرأة في هذه اللعبة.

«تبدو سخيفاً»، صاح به الحكم الآخر، «لأن الحواس لم تستطع خدمتك» الشمس، والقمر، والنجوم تؤثر علينا بشكل متساو وهي في السماء كل الوقت؛ الرمية كانت خرقاء وكل الرميات الخرقاء تحسب!

وهكذا تحادثا لوهلة؛ لكن في المحصلة، واستناداً إلى قرار الرئيس لم يجز لهاوكه إعادة الرمية.

«إلى الأمام!» صاح الضيوف، وسحب حكمهم العصا السوداء من التربة، واقترب الرامي بعد نداء رقمه، ورمى الكرة إلى

الأمام. وحين أراد كبير عمال مشرف السد معاينة الرمية، ترتب عليه مواجهة إيلكة فولكرتس: التي قالت له «لمن تركت اليوم عقلك في البيت؟»هنا رمقها بوجه متجهم تقريباً، واختفت كل علامات البهجة من وجهه العريض. هذا من أجلك وأردف «يبدو أنك بدورك نسيت عقلك!»

«امضِ؛ أنا أعرفك، يا أولة بيترس!» ردت الصبية شامخة الرأس؛ لكنه أشاح رأسه وتصرف كما لو أنه لم يسمع ذلك.

ومضت اللعبة، والعصاتان البيضاء والسوداء قدماً. وحين جاء دور هاوكه للرمي، طارت كرته بعيداً للغاية، بحيث اقتربت من الهدف، البرميل الضخم الذي كساه الجليد الأبيض. كان الآن شاباً متين البنية، تدرب يومياً خلال يفاعته على الرياضيات وعلى فن الرمي.

«مرحى يا هاوكه!» صرخ صوت بين الجمع؛ كما لو أن ميخائيل كبير الملائكة هو الذي قذفها بنفسه! اخترقت امرأة كبيرة في السن الجمع حاملة معجنات ونبيذاً واقتربت منه، أترعت الكأس وقدمته إليه: «هيا» قالت، «نريد أن نتصالح: اليوم هو أفضل من يوم ضربت القط حتى مات!» وحين نظر

إليها عرف أنها كانت ترين يانس. «أشكرك أيتها العجوز» قال لها؛ لكني لا أحتسي هذا. دس يده في جيبه ووضع في كفها قطعة نقدية: «خذي هذا واشربي الكأس يا ترين؛ هكذا نكون قد تصالحنا!»

«أنت محق هاوكه!» ردت العجوز، وتبعت نصيحته؛ «معك حق؛ هذا أفضل بالنسبة لامرأة عجوز مثلي!»

«كيف حال بطاتك؟» صاح بها وهي تمضي حاملة سلتها؛ لكنها اكتفت بإيماءة من رأسها، دون أن تلتفت، ولوحت بيديها المعروقتين في الهواء. «لا شيء، لا شيء، هاوكه؛ ثمة الكثير من الفئران في حفرنا؛ عسى أن يريحني الرب؛ على المرء تغيير طريقة تغذيته!» وهكذا اندست بين جمع الناس، وعرضت من جديد شرابها ومعجناتها المحشوة عسلاً.

وأخيراً غابت الشمس خلف السد؛ وغاب لمعانها متحولاً إلى وميض أحمر مائل إلى البنفسجي، وبين حين وآخر طارت الغربان السود وبدت للحظة كما لو أنها ذهبية اللون، لقد حل المساء. وعلى أرض الأهوار المستصلحة تقدم القطيع البشري الداكن مبتعداً باستمرار عن الدور السوداء التي صارت بعيدة،

باتجاه البرميل؛ وصار بإمكان رمية ماهرة بلوغه. اصطف أهل الأهوار؛ وعلى هاوكه رمي الكرة.

بدا البرميل أبيضِ في عتمة المساء، التي انتشرت الآن من السد فوق المنطقة. «يجب عليك أن تتركها لنا هذه المرة!» صاح أحد الضيوف، توتر الوضع فقد كانوا متقدمين على الأقل بمقدار نصف قدم. ابتعد الهيكل الناحل عن الحشد؛ وحدقت العينان الرماديتان المستقرتان في الوجه المتجمد إلى الأمام باتجاه البرميل؛ استقرت الكرة في اليد المسترخية.

«الطائر كبير جداً عليك»، وصل إلى سمعه في هذه اللحظة صوت أولة بيترس؛ «هل علينا استبداله بوعاء رمادي؟»

التفت هاوكه باتجاهه وحدق فيه بعينين ثابتتين: «أنا أرمي باسم سكان الأهوار!» قال. «إلى من تنتمي أنت؟» «أظن، في ما يخص هذا، أنك ترمي لإرضاء إيلكه فولكرتس!»

«ابتعدوا!» صرخ هاوكه، واتخذ من جديد وضعية الرامي. إنما اقترب أولة برأسه أكثر. وفجأة، وقبل أن يتمكن هاوك من فعل شيء، جذبت يد المتطفل إلى الخلف، بحركة دفعته نحو

رفاقه الضاحكين. لم تكن اليد التي اقترفت هذا بالكبيرة؛ وحين التفت رأس هاوكه بسرعة، رأى إلى جانبه إيلكه فولكرتس ترتب كمي ثوبها، وبدا كما لو أن حاجبيها الداكنين كانا غاضبين في وجهها المحتقن. بدا أن قوة هائلة دبت في ذراع هاوكه؛ انحنى إلى الأمام بعض الشيء، ووزن الكرة عد مرات في كفه؛ ثم قذفها، وخيم صمت الأموات على الجانبين؛ تابعت كل العيون الكرة، سُمع هسيسها، وهي تخترق الهواء؛ وفجأة، وفي مكان بعيد عن موقع الرامي، حجبتها جناحي نورس فضي، جاء يصيح قادماً من السد؛ وسُمع في الوقت نفسه دوي الكرة وهي تصطدم بعيداً بالبرميل.

«مرحى يا هاوكه» صاح أهل الأهوار، وانتشر بين الجمع صخب يردد: «هاوكه! هاوكه هايين ربح اللعبة!». أما هو، وبعد أن أحاط به الجمع، بحث نحو كف محددة! وحتى لما صاحوا من جديد: «ما الذي يبقيك هنا، هاوكه؟ الكرة صارت في البرميل!» اكتفى بالإيماء برأسه ولم يغادر موقعه؛ وفقط حين أحس بالكف الصغيرة تَستقر في كفه، قال: «يبدو أنكم محقون؛ بدوري أظن، أنني ربحت!».

وهنا، دار الجميع على أعقابهم، وفرق الحشد بين إيلكه وهاوكه ودفعهما على طريق العودة نحو موقع الوليمة التي أعدها مشرف السد على شرف الضيوف من الأراضي العالية.

وهنا فر اثنان من الحشد، وفي حين قصدت إيلكه غرفتها، وقف هاوكه قبالة الإسطبل، وشاهد كيف تدافعت الكتلة البشرية الداكنة إلى الداخل، إذ جهّز المكان لاستقبال الراقصين.

انتشر العتم مغطياً المساحة الشاسعة؛ تمدد الهدوء حوله، فقط في الإسطبل خلفه خارت الأبقار؛ وخيل إليه سماع صوت المزمار يأتي من الأعلى. هنا التقط سمعه حفيف ثوب قادم من زاوية الدار، واجتازت خطوات سريعة قصيرة الدرب الذي يعبر الأهوار باتجاه الأراضي العالية. وقتها رأى في الظلمة قوام وعرف أنها إيلكه. كانت ذاهبة إلى الرقص في الداخل. اندفع الدم إلى عنقه؛ ألا يفترض به السير خلفها ومرافقتها؟ لكن هاوكه لم يكن مقداماً في حضرة النساء؛ انشغل بهذه المسألة، وظل واقفاً إلى أن غابت عن ناظرية في الظلام.

ثم حين اختفت خطر أن يلحق بها، مضى بدوره على الدرب نفسه، إلى أن وصل البيت القرميدي في الأعلى قرب الكنيسة،

إلى أن أحاط به صخب ثرثرة وصيحات الجمع في الدار وعلى الممر، وهدير الكمنجات والمزامير، وتخدرت حواسه. تسلل دون أن يلحظه أحد إلى قاعة مبنى موظفي السد؛ لم تكن بالضخمة إنما مزدحمة إلى حد عجز معه المرء عن رؤية أبعد من خطوة أمامه. وقف صامتاً في فرجة الباب وأدار عينيه في الحشد الصاخب المتحمس؛ بدا له الناس مثل المجانين؛ ولم يكن عليه الانشغال بأن هناك من لا يزال يفكر بالصراع الذي دار عصراً ومن هو الذي ربح اللعبة قبل ساعة؛ انشغل كل واحد بفتاته ودار معها في حلقات. بحثت عيناه عن واحدة بعينها، وأخيراً - هناك! كانت تراقص ابن عمها مشرف السد الشاب؛ لكن سرعان ما غابت عن عينيه، ولم يعد يرى سوى فتيات الأهوار والأراضي العالية اللواتي لا يأبه لشأنهن. وفجأة صمتت الكمنجات والمزامير، وانتهت الرقصة، إنما بدأت رقصة أخرى. تابعها هاوكه برأسه، هل ستفي إيلكه بوعدها، أم إنها ستفضل الرقص مع أولة بيترس. ولم يكد يتمكن بعد جهد من كبت صرخة دارت في خلده؛ والآن ما الذي عليه القيام به؟ لكن بدا أنها لم تشارك في هذه الرقصة التي أشرفت على الانتهاء، ثم تلتها أخرى، ثم رقصة قائمة على

خطوتين درجت مؤخراً. بدأت الموسيقا الصاخبة، تابع الشباب خطوات فتياتهن، وانعكست الأنوار على الجدران. اشرأب عنق هاوكه خلال سعيه للتعرف على الراقصين؛ وهناك، حيث الزوج الثالث من الراقصين، كان أولة بيترس، إنما من كانت شريكته في الرقص؟ ثمة صبية ضخمة من أهالي الأهوار تقف أمامه وتحجب وجهها! استمر الرقص، واستدار أولة وشريكته. «فولينا! فولينا هاردرس!» صاح هاوكه بصوت يكاد يكون عالياً وتنهد مرتاحاً. لكن أين إيلكه؟ أليس لديها من يراقصها، أم أنها رفضت كل المتقدمين لأنها لم ترغب بمراقصة أولة؟ - واستؤنفت الموسيقا، وبدأت رقصة جديدة؛ إنما لم ير إيلكه!

اقترب أولة هناك، محتضناً فولينا البدينة «هكذا إذن» قال هاوكه؛ قريباً سيتقاعد ييس هاردرس صاحب الخمسة والعشرين أكراً من الأرض! لكن أين إيلكه؟

غادر موقعه عند فرجة الباب وتقدم عبر الصالة؛ وتوقف فجأة قبالتها، جالسة مع صديقة قديمة في زاوية. «هاوكه!» صاحت ونظرت إليه عبر وجهها الناحل؛ أأنت هنا؟ لم أرك ترقص!.

«لم أرقص بدوري»، رد عليها.

- «لماذا لم ترقص ياهاوكه؟» همت بالنهوض وقالت له: «أتريد مراقصتي؟ لم أدع أولة بيترس يراقصني؛ وهو لن يعيد المحاولة ثانية!»

لكن هاوكه لم يخط باتجاهها: «أشكرك إيلكه»، قال لها، «لا أجيد هذا بما يكفي، ويمكن أن يسخروا منك؛ وحينئذ...» توقف بشكل مباغت ونظر إلى عينيها الرماديتين نظرة نابعة من صميم قلبه، كما لو أنه ترك تلك النظرة تعبر عما يفترض به قوله.

«ما الذي تقصده، هاوكه» سألت بصوت منخفض.

- «أنا أعني يا إيلكه، لا يمكن أن يكون اليوم أفضل مما عشته حتى الآن.

«أجل» قالت هي، «ربحت اللعبة».

«إيلكه!» همس بصوت لا يكاد يُسمع...

اجتاحت وجهها موجة لاهبة «هيا!» قالت له؛ ما الذي تريده؟ وأسبلت عينيها.

قال هاوكه بصوت أعلى لما أخذ شاب صديقتها لمراقصتها: «أظن يا إيلكه أنني فزت بما هو أفضل!»

تابعت عيناها التحديق في الأرض بضع ثوان؛ ثم رفعتهما متمهلة، ورمقته بنظرة براقة انطلقت من طبيعتها الهادئة هبت عليه مثل نسمة صيفية. «افعل ما يقوله قلبك، هاوكه يفترض أننا يعرف بعضنا بعضاً جيداً!»

لم ترقص إيلكه تلك الأمسية، وحين عاد الاثنان باتجاه البيت، متشابكي الكفين؛ نشرت النجوم بريقها على الأهوار الصامتة؛ وهبت ريح شرقية خفيفة حاملة لسعة برد؛ إنما مضى الاثنان بلا دثار أو غطاء، كما لو أن الربيع حل فجأة.

عقد هاوكه العزم على أمر، كان تحقيقه مؤجلاً إلى مستقبل غير معروف، أراد من خلاله الاحتفال مع نفسه. ولهذا قصد يوم الأحد التالي مشغل صائغ الذهب العجوز أندرسن و طلب خاتماً ذهبياً ثقيلاً «أعطني إصبعك كي أتمكن من قياسه!» صاح العجوز «وأمسك ببنصره». تمتم الرجل «إصبعك ليس ضخماً كما هو حال أصابع الناس هنا!» لكن هاوكه رد «الأفضل أن تقيس الخنصر!» ومد إصبعه الصغير.

رمقه الصائغ بنظرة نمت عن ارتباكه؛ إنما ما الذي يعنيه من نزوات ابن الفلاح الشاب: «إذن علينا البحث بين الخواتم المخصصة للصبايا! فاندفعت الدماء إلى وجنتي هاوكه. لكن الخاتم كان مناسباً لخنصره، فأخذه متلهفاً ودفع ثمنه قطعاً فضية براقة؛ ودسه في جيب معطفه وضربات قلبه تتسارع كما لو أنه كان يحضر احتفالاً. ومنذ ذلك الحين واظب على حمله يومياً في جيبه وهو مضطرب إنما فخور كما لو أن جيب السترة عديمة الأكمام لم يُخَطُ إلا لهذا الغرض.

حمله بتلك الطريقة على مدى العام، إنما كان على الخاتم الانتقال إلى جيب سترة جديدة؛ فحتى الآن لم تحن فرصة ملائمة لتحريره. من المؤكد أنه قد دار في خلده أن يقصد سيده بشكل مباشرة، فوالده كان من مالكي الأراضي! لكن ما إن يستعيد هدوءَه حتى يدرك أن مشرف السد العجوز سيسخر من خادمه الصغير. وهكذا عاش هو وابنة مشرف السد متجاورين؛ التزمت هي صمت الصبايا الخفر، إنما ساورهما شعورٌ كما لو أنهما يسيران يداً بيد طوال الوقت.

بعد سنة على احتفال الشتاء استقال أولة بيترس، وتزوج فولينا هاردرس؛ كان هاوكه محقاً: تقاعد الرجل العجوز، وبدلاً من الابنة البدينة صار الصهر يمتطي الفرس البني ويعبر الأراضي المستصلحة، وكان كما يقول الناس، يشرف في طريقه على شؤون السد. صار هاوكه رئيس عمال المزرعة، وأسند وظيفته السابقة لشاب؛ لم يرغب مشرف السد في البداية بترقيته: مساعد كبير العاملين أفضل، قال محتجاً، أنا أحتاج إليه هنا مع كتبي! لكن إيلكة عارضته وقالت: «حينها سيمضي هاوكه بدوره. خشي العجوز من هذا، وهكذا صار هاوكه رئيس العمال، إنما واظب، مثل السابق، على تقديم العون في إدارة شؤون السد.

ومر عام آخر وبدأ يحدث إيلكه حول تدهور صحة والده، وأن أيام الصيف التي يتخلى فيها مشرف السد عنه ليعمل في حقل والده لم تعد كافية؛ لم أعد قادراً على تحمل هذا.

وذات أمسية صيفية؛ وقف كلاهما قبالة باب الدار في ظل شجرة الدردار الضخمة. نظرت الصبية بصمت إلى أغصان الشجرة لوهلة؛ ثم قالت: «لم أرد الحديث، يا هاوكه، ظننت، أنك ستقوم بما هو صواب».

«إذن علي مغادرة داركم»، «ولن أتمكن من العودة ثانية».

صمتا بعض الوقت وعيونهما تتابع الشفق، والشمس تغوص خلف السد في البحر.

«عليك أن تعرف»، قالت له: «كنت اليوم صباحاً عند والدك ووجدته نائماً في مقعده؛ وقلم الرسم في يده، ودفتر الرسم على الطاولة قربه وفيه رسم لم ينجز؛ وحينها استيقظ وتكلم معي باهتمام طوال ربع ساعة، ولما هممت بالمغادرة، أمسك بكفي مرتاعاً، كما لو أنه خشي أن تكون المرة الأخيرة؛ إنما...

«إنما ماذا؟» سأل هاوكه بعد أن رأى ترددها.

سالت دمعتان على خدي الصبية. «كل ما في الأمر هو أنني أفكر في والدي» قالت له؛ «صدقني، سيكون من الصعب عليه أن يفقدك،» وأردفت كما لو أنها استجمعت قواها لتنطق بذلك: « كثيراً ما يبدو لي أنه بدوره مستعد للموت».

لم ينبس هاوكه بكلمة؛ أخذ على حين غرة وهو يداعب الخاتم في جيبه؛ إنما قبل أن يتغلب على امتعاضه من ضعف عزيمته القسري، قالت إيلكه بصوت مرتفع: «لا، لا تحزن يا هاوكه! أنا واثقة أنك لن تتركنا على أي حال».

هنا أمسك بكفها بقوة ولم تسحبه. وقف الشابان لوهلة متجاورين في العتم المخيم، إلى أن افترق الكفان وسار كل منهما في طريقه. هبت ريح غاضبة، وتخللت ورق الدردار، وعلا حفيف الأغصان قبالة واجهة الدار؛ ثم ساد ظلام الليل، وخيم بهدوء على السهل هائل الاتساع.

صرف مشرف السد العجوز هاوكه بتدخل من إيلكه، ولم يتم إبلاغه بالأمر في الوقت المناسب، وصار هناك عاملان جديدان في الدار. وبعد بضعة أشهر مات تيدة هايين؛ إنما قبل موته، نادى ابنه وطلب منه أن يجلس قرب سريره. «اجلس بقربي يا ولدي» قال العجوز بصوت منهك، «اقترب مني! ما من داع لأن تخاف، كل ما في الأمر أن ملك الموت جاء يناديني».

جلس الابن المضطرب قرب حافة السرير: «تكلم يا أبي، قل ما تبقى عليك قوله!».

«أجل يا بني، ما يزال هناك شيءٌ» قال العجوز وضم يديه فوق غطاء السرير. حين ذهبت وأنت ما تزال يافعاً للخدمة لدى مشرف السد، دار في بالك أنك ستكون يوماً ما في مثل هذا المنصب، وفكرت أنا أنك ستكون الرجل المناسب. لكن

ميراثك كان صغيراً للغاية بالنسبة لمثل هذه الوظيفة. قترت على نفسي خلال فترة خدمتك لأنني عزمت على زيادته.

أمسك هاوكه بحماس بكفَّي والده، وحاول العجوز تعديل وضعيته ليتمكن من رؤيته. «أجل يا بني» قال وأردف «هناك في الدرج العلوي من الصيوان تجد الوثيقة. أنت تعلم أن العجوز آنتية فولرس امتلكت قطعة أرض مستصلحة مساحتها خمس أكرات ونصف؛ لكنها لم تعد قادرة، بعد تقدمها في العمر، على تدبر أجر الأرض بمفردها؛ لذا واظبت على دفع مبلغ محدد مع حلول الاحتفال بالقديس مارتين، ودفع المزيد إلى العجوز الفقيرة حين يتوفر لدي؛ لذا تنازلت عن ملكية الأرض لصالحي؛ وتم إنجاز كل الجوانب القانونية. وهي بدورها راقدة الآن على فراش الموت لأن مرض أهوارنا، السرطان، قد حل بها؛ ولن تكون مضطراً للاستمرار بالدفع!».

أطبق عينيه لوهلة؛ ثم قال: «هذا ليس بالكثير؛ إنما صرت تملك أكثر مما كنت تملك حين أقمت معي. عسى أن يعينك هذا في حياتك على الأرض!».

نام العجوز وسط كلمات شكر ابنه. لم يعد لديه ما يشغل باله؛ وبعد بضعة أيام أسدل ملاك الرب عينيه إلى الأبد، وحصل هاوكه على ميراث والده.

- بعد يوم من الدفن جاءت إيلكه إلى داره. «شكراً لأنك أتيت لإلقاء نظرة يا إيلكه!» صاح هاوكه مرحباً بها.

لكنها ردت عليه قائلة: «لم آت لألقي نظرة؛ أريد ترتيب دارك بحيث تتمكن من العيش في مسكنك بشكل منظم! لم ير والدك شيئاً حوله ما خلا الرسوم والأرقام، كما أن الموت نشر الفوضى؛ أود جعل المكان أكثر مواءمة للعيش بالنسبة لك!».

نظر إليها بعينيه الرماديتين نظرة طافحة بالثقة: «هيا رتبي المكان» قال لها؛ «سيعجبني هذا».

بعدها باشرت الترتيب: نفضت الغبار عن لوح الرسم الملقى على الأرض، ورفعته عن الأرض، ووضبت أوراق الرسم والأقلام والطباشير في درج الصيوان؛ ثم استعانت بفتاة الخدمة وأعادت بمعونتها ترتيب أوضاع كل أثاث الكوخ بشكل أفضل بحيث بدا المكان أوسع وأكثر ضياءً.

قالت إيلكه ضاحكة: «هذا أمر لا يقدر عليه إلا نحن السيدات!» ونظر إليها هاوكه، على الرغم من حزنه على والده، بعينين فرحتين، وقد ساعد بدوره في العمل لما اقتضى الأمر.

كان الوقت بداية أيلول، وحين اقترب العتم كان كل شيء وفق ما أرادته أمسكت بيده ورمقته بعينيها الداكنتين وقالت: «هيا تعال وتناول العشاء عندنا؛ كان علي التعهد لأبي بأن أجلبك معي؛ بعدها حين سترغب في العودة إلى الدار، يمكنك دخول بيتك وأنت مرتاح!».

ولما دخلا إلى غرفة المعيشة الفسيحة في دار مشرف السد، حيث الستائر مرسلة وبقربها الشمعتان تحترقان على الطاولة، أراد الأخير النهوض عن مقعده، لكن جسده الثقيل رماه ثانية، واكتفى بأن يقول لكبير عماله السابق: «أحسنت، أحسنت يا هاوكه، من الجيد أن تأتي لرؤية أصدقائك القدامى! اقترب مني، اقترب أكثر! وما إن استقر هاوكه في مقعده حتى أخذ يده بين يديه المكورتين: «الآن، الآن يا فتاي» قال وأردف «كل ما عليك هو الهدوء الآن، نحن محكومون بالموت، ولم يكن والدك من السيئين! لكن عليك يا إيلكه الاهتمام بجلب المقالي إلى المائدة؛ يجب أن نشد عزائمنا!

أمامنا الكثير من العمل يا هاوكه! اقترب تفتيش الخريف لدينا كومة من الفواتير والحسابات بقدر ارتفاع الدار، الأضرار الجديدة التي أصابت السد في الأرض المستصلحة الغربية، لست أدري أين أضعت عقلي، لكن عقلك، ما يزال أكثر شباباً، أنت شاب جيد يا هاوكه! شكراً للرب».

وبعد هذا الحديث الطويل الذي أفرغ من خلاله العجوز ما في قلبه، ارتمى ثانية في مقعده، ونظر ساهماً إلى الباب، حيث قدمت إيلكه حاملة طبق اللحم المقلي. وقف هاوكه مبتسماً إلى جانبه. «اجلس الآن» قال مشرف السد، حتى لا نهدر الوقت؛ فهذا لا يطيب طعمه إلا ساخناً!

جلس هاوكه، بدا له أنه من نافل القول، المشاركة في عمل والد إيلكه. وحين حل موعد تفتيش الخريف ومضى شهران آخران من العام، كان أنجز الجزء الأفضل من العمل.

توقف الراوي وأجال البصر حوله. اخترقت صرخة طائر نورس النافذة، وسمع من الخارج من باحة الدار قرع خطوات كما لو أن أحداً ما يضرب الأرض الغضارية بحذائه الثقيل.

اشرأبت رؤوس مشرف السد والمراقبين باتجاه باب الدار. «ما هذا؟» صاح الأول.

دخل رجل متين البنيان معتمراً قبعة سكان منطقة الجنوب الغربي. وقال: «سيدي، نحن كلينا رأيناه، هانس نيكلز وأنا: فارس الحصان الأشهب رمى بنفسه في اليم.

«أين شاهدتما هذا؟» سأل مشرف السد.

- ثمة شق واحد، في أرض يانسن، حيث تبدأ جزيرة هاوكه هايين».

- هل رأيتماه مرة واحدة فقط؟

- «مرة واحدة فقط؛ كان مثل الظل، إنما هذا لا يعني أن هذه هي المرة الوحيدة».

نهض مشرف السد. التفت نحوي وقال: «اعذرني، يجب علينا رؤية ما في الخارج، لنرى إلى أين تقود هذه المصيبة! ثم مضى يجر جزمته باتجاه الباب، لكن باقي الحضور بادروا إلى النهوض وتبعوه.

بقي وحيداً مع مدير المدرسة في الغرفة الفسيحة الخاوية؛ صار بإمكان المرء النظر عبر النافذة غير مسدلة الستائر بعد مغادرة الرجال الجالسين الذين كانوا يحجبونها بظهورهم، ورؤية مطاردة العاصفة للغيمات الداكنة عبر السماء.

ظل العجوز في مكانه، وعلى شفتيه ابتسامة ساهمة تكاد تكون مشفقة.

«صار المكان خاوياً للغاية»، وأردف «هل بإمكاني دعوتك إلى غرفتي؟ أنا أقيم هنا، وصدقني أنا أعرف الطقس هنا عند السد؛ بالنسبة إلينا ليس هناك مسوغٌ للخوف».

قبلت الدعوة ممتناً، لأنني بدأت أتجمد هنا، وهكذا ارتقينا الدرج مصطحبين مصباحاً إلى غرفة تحت الجملونات، وعلى الرغم من اتجاه الغرفة غرباً، إنما كانت نافذتها محجوبة بسجاد داكن اللون. ورأيت رف مكتبة صغيرة، وإلى جانبها صورة لشخصين مسنين؛ وأمام مائدة ثمة مقعد ضخم مزين له مسندان للذراعين. «خذ راحتك!» قال مضيفي الودود وألقى بعض الحطب في المدفأة الصغيرة التي ما تزال تهسهس، ومتوجة بوعاء من الصفيح. «بعض

الوقت فقط وستستعر النار، وقتها سأمزج لك كأساً من مشروب روحي يبقيك صاحياً».

«لا أحتاج إلى هذا» قلت له؛ «لن أنعس إن رافقت صاحبك هاوكه هايين على درب حياته!».

- هل تعني ذلك حقاً؟ ورمقني بعينيه السعيدتين بعد أن استقريت مرتاحاً في المقعد.

«أين وصلنا؟؟ أجل، أجل؛ عرفت أين! إذن:

حصل هاوكه على ميراث أبيه، كما أن آنتية فولر ارتاحت من معاناتها، وهكذا توسعت أرضه. إنما منذ موت والده، أو بالأحرى، منذ سماع كلمات والده الأخيرة، نما في داخله شيْءٌ، كانت بذوره مزروعة منذ زمن الولدنة؛ ولطالما كرر في نفسه، أنه الرجل المناسب، في حال تقرر تعيين مشرف جديد على السد. هذا هو الأمر؛ أدرك والده هذا، كان أذكى رجال القرية، وخلف له هذه الكلمات كما لو كانت القسم الأخير من ميراثه؛ كما أن أرض عائلة فولر، التي حصل عليها بفضله أيضاً، هي الحجر الأول الذي سيقوده إلى هذا المستوى. وبطبيعة الحال يفترض بمشرف السد امتلاك عقارات أخرى! عمل والده بكد وحيداً طوال

سنين، وتمكن بفضل ما جناه، من أن يصبح سيداً على ملكية جديدة؛ ويمكنه هو بدوره القيام بهذا؛ كانت قوى والده مستنزفة، أما هو فبإمكانه القيام بالأعمال الصعبة على مدى سنوات! وبطبيعة الحال إن أراد النجاح في هذا الخط، ناهيك عن أن صرامته وحدته في العمل خلال فترة خدمته عند معلمه القديم لم تترك له أصدقاء في القرية، كما أن أولة بيترس، معارضه القديم، حاز مؤخراً ميراثاً، وبدأ بالتحول إلى رجل رغد الغيش! وتتالى صف كامل من الأوجه في سريرته، ورمقته عيون الجميع بأعين معادية؛ الأمر الذي أشعل سخطه ضد هؤلاء الأشخاص: مد يده كما لو أنه أراد صفعهم، فهم يريدون إبعاده عن المنصب وهو الوحيد الكفء. ولم تغادره هذه الفكرة؛ هم ما زالوا هنا، وهكذا نما في قلب الشاب إلى جانب شعور الكرامة والحب الطموح والكراهية لكنه أخفى الأخيرين في داخله بحيث إن إيلكه نفسها لم تنتبه إليهما.

وحين حلت السنة الجديدة، أقيم حفل زفاف؛ العروس كانت من أقرباء عائلة هايين، وكان هاوكه وإيلكة بين الضيوف المدعوين؛ وخلال وليمة العرس، ونتيجة لغياب أحد الأقرياء المقربين، صادف أن كان مكانا جلوسهما متجاورين. هنا لمعت ابتسامة على الوجهين،

وشت بسرورهما بالأمر. ولكن هذه المرة جلست إيلكة غير مبالية وسط صخب الأحاديث وقرع الكؤوس.

«هل يزعجك شيء ما؟» سأل هاوكه».

- أوه، في الحقيقة لا شيء؛ هناك ازدحام كبير هنا بالنسبة إلي.

«لكنك تبدين حزينة للغاية»!

هزت برأسها؛ وبعدها امتنعا عن الكلام.

ثم راوده شعور أشبه بالغيرة، وتسللت يده تحت غطاء الطاولة، وأمسكت بيدها؛ لكنها لم تسحبها بل تركتها تسترخي بثقة في يده. هل انتابها شعور بالوحدة وهي تشاهد يومياً جسد أبيها المتهالك؟ لم يدر في خلد هاوكه سؤالها عن هذا؛ انحبست أنفاسه لما سحب الخاتم الذهبي من جيبه. «هل ستدعينه يرتاح عندك؟ قال هذا مرتجفاً وهو يدس الخاتم حول بنصر الكف الناحل.

كانت زوجة الكاهن جالسة قبالتهما؛ وفجأة وضعت ملعقتها على الطاولة، واستدارت نحو الجالس بجوارها وصاحت: «يا إلهي، الصبية! إنها شاحبة شحوب الموت»!

لكن الدم عاد إلى وجه إيلكه. «هل بإمكانك الانتظار، يا هاوكه؟» سألته بصوت خافت.

تطلب الأمر من ابن السهوب الذكي بضع لحظات قبل أن يقول: «أنتظر ماذا؟»

- «تعرف هذا تماماً؛ ولا أحتاج أن أقوله لك».

«أنت محقة» قال لها وأردف: «أجل يا إيلكه يمكنني الانتظار إن كان هذا ضمن حدود قدرة البشر».

«يا إلهي، أخشى أن يكون هذا قريباً جداً! لا تتحدث بهذا الأسلوب يا هاوكه؛ أنت تتكلم عن موت والدي!» أراحت يدها الأخرى على صدرها وقالت: «حتى تلك اللحظة سأحمل الخاتم الذهبي هنا؛ وعليك ألا تخشى أن تستعيده طوال ما تبقي لي من حياة!»

هنا ضحك الاثنان، وتشابكت كفاهما بقوة كان يمكن في ظروف أخرى أن تجعل الصبية تولول.

لم تتوقف زوجة الكاهن عن التحديق في عيني إيلكه اللامعتين الآن مثل لهب داكن في ظل طاقية معطفها ذهبية اللون. لكنها لم

تفقه كلمة واحدة من الصخب القريب منها؛ كما لم تلتفت مجدداً إلى الجالس قربها، وهي لم تعتد إزعاج عهود زواج كما بدا أنه يحدث أمامها، وكان كل ما يهمها حصول زوجها الكاهن على رسوم عقد القران.

تحقق شعور إيلكه المسبق، فذات يوم بعد الفصح عُثر على مشرف السد تيدة فولكرتس ميتاً في فراشه؛ وبدا من سَحنته أن موته كان هادئاً. وكان عبر خلال الأشهر الأخيرة عن زهده بالحياة ولم يعد يستسيغ اللحم المشوي ولا حتى بطاته.

وشهدت القرية جنازة مهيبة. وهناك في المرتفع عند المدافن قرب الكنيسة ثمة قبر قائم جهة الغرب يحيط به سياج معدني؛ وكان هناك شاهدة قبر ضخمة نحت عليها صورة الموت وفكين غزيري الأسنان و نقش تحتها بأحرف ضخمة:

هذا هو الموت، مصير كل البشر،

خذ الفن والمعرفة وهما ملكك،

الرجل الفاني يرتاح هنا،

ليغمره الرب بسكينته.

كان مدفن مشرف السد السابق فولكرت تدسين؛ والآن تم حفر قبر جديد سيدفن فيه ابنه الميت حديثاً تيدة فولكرتس. وسرعان ما وصل من الأهوار موكب التشييع، مجموعة من العربات أتت من كل القرى؛ حملت العربة الأولى التابوت الثقيل، يجرها حصانان أسودان من إسطبل مشرف السد ارتقيا التلة الرملية وصولاً إلى الأرض المرتفعة؛ تماوج عرفا الحصانين وذيلاهما في نسمات الربيع القاسية. امتلأت الباحة حول الكنيسة بالبشر حتى جدران السور، بل إن الممر امتلأ بصبية يحملون بين أيديهم أطفالاً، فالجميع أرادوا مشاهدة الدفن.

وفي الدار هناك في الأسفل عند الأهوار أعدت إيلكه وليمة العزاء في غرفة المعيشة وفي أفضل غرفة في الدار؛ تم توزيع النبيذ المعتق قرب الصحون، ووضعت أمام الكرسي المخصص لكبير مشرفي السدود، الذي لم يغب اليوم، وكذلك أمام المكان المخصص للكاهن زجاجة نبيذ فاخر سدت فوهتها بفلينة طويلة.

وبعد تفقد كل شيء مرت عبر الإسطبل باتجاه باب الباحة؛ لم تلتق أحداً في طريقها، فالعمال ركبوا عربتين رافقت موكب الجنازة. هنا ظلت واقفة، ورداء الحداد يتطاير مع رياح الربيع،

وتابعت بعينيها وصول آخر العربات إلى موقع الكنيسة في الأعلى. وبعد وهلة من الزمن تجمع هناك حشد ساد حوله صمت الموت. شبكت إيلكه يديها؛ هم الآن يضعون التابوت في الحفرة:

«وإلى التراب تعود!» وكما لو أنها تمكنت من موقعها من سماع الصوت الخافت، ورددت العبارة؛ واغرورقت الدموع في عينيها، وسقطت يداها المعقودتان عند صدرها: «أبانا الذي في السماوات!» صلت بحماس كبير. وحين انتهى الرجل من صلاته، ظلت هي بلا حركة طويلاً، هي صارت الآن سيدة دار الأهوار الواسعة؛ وبدأت أفكار حول الموت والحياة تتداخل في سريرتها. نبهها صرير العجلات البعيد. ولما فتحت عينيها رأت العربات تتالى مسرعة من أعلى الأهوار باتجاه دارها. شدت من عزيمتها وحدقت ساهمة باتجاه الهضبة ثم عادت، كما أتت، عبر الإسطبل إلى غرفة المعيشة. ولم يكن ثمة أحد هناك، كل ما في الأمر أنها سمعت وشوشات الخادمات في المطبخ. كانت الغرفة هادئة وخاوية؛ غُطيت المرآة بين النافذتين بقماش أبيض، وكذلك تم تغطية مقابض الأبواب النحاسية بحيث لم يبق أي شيء يلمع في الغرفة. نظرت إيلكه إلى

الأبواب التي فصلتها عن سرير والدها الذي شهد نومته الأخيرة، مشت باتجاهه ساهمة الفكر، وقرأت ما كتب بين الزهور والقرنفل بأحرف ذهبية:

إن أنجزت عملك بشكل صحيح،

فسيدهُمك النوم دون عناء في الليل.

كان هذا من عهد جدها! ألقت نظرة على الخزانة الجدارية؛ كانت شبه خاوية؛ لكنها رأت عبر الباب الزجاجي الكأس، الذي طالما روى والدها عن طيب خاطر كيف فاز بها في مباراة فروسية زمن شبابه تضمنت قذف الفارس لرمح ليمر عبر حلقة معلقة. أخذت الكأس ووضعتها أمام طبق المشرف العام على السدود. قصدت بعدها النافذة، ورأت العربات عند حوض بناء السفن، وتتالت الواحدة تلو الأخرى ووقفت قبالة الدار، وبخفة قفز الضيوف من مقاعدهم إلى الأرض.

دخل الجميع إلى الدار وهم يفركون أيديهم ويثرثرون؛ لم يستغرق هذا وقتاً طويلاً؛ وهكذا جلس الناس إلى طاولة المأدبة التي حملت أطباق تصاعد منها بخار مشبع بمختلف أنواع البهارات، وكانت

الأطباق جيدة التحضير، وجلس كبير مشرفي السدود إلى جانب الكاهن إلى الطاولة في القاعة الرئيسية؛ وساد الصخب والأحاديث مرتفعة الصوت كما لو أن الموت لم يمر هنا ناشراً صمته المرعب. طافت إيلكه والخادمات حول الطاولات، كانت صامتة وعيناها تابعت الضيوف حريصة ألا يكون هناك أي نقص في مأدبة العزاء. وبدوره جلس هاوكه هايين في غرفة المعيشة إلى جانب أولة بيترس وغيره من صغار الملاك.

وبعد انتهاء الوليمة، جُلِبت الغلايين قصيرة الرأس من ركن الغرفة وأُشعلت، وانشغلت إيلكه بتوزيع الأكواب الملأَى بالقهوة على الضيوف؛ فلا مجال للتقتير في مثل هذا اليوم.

وفي غرفة المعيشة وقف كبير مشرفي السدود مع الكاهن ومع مندوب إدارة السدود الأشيب ييفي مانيرس قرب مكتب مشرف السد أمام مكتب الرجل الذي لم يكدْ يُدْفَنُ.

قال الأول: «حسناً أيها السيدان لقد دفنا مشرف السد القديم بطريقة كريمة؛ إنما من أين سنأتي بمشرف جديد؟ أظن يا مانيرس، أن عليك الاستعداد لقبول هذا التكريم!»

رفع العجوز مانيرس قبعته السوداء عن شعره الأشيب: «سيدي كبير مشرفي السدود، لن تطول اللعبة؛ حين كان تيدة فولكرتس مشرفاً على السد، كنت أنا مندوب الإدارة ومضى على هذا أربعون عاماً».

«ليس في هذا ما ينقص من قدرك يا مانيرس؛ فبناء على هذا أنت على اطلاع على الأمر ولن يكون لديك مشاكل!».

لكن العجوز هز رأسه: «لا، لا، أرجو سعادتك تركي حيث أنا لأمضي ما تبقى لي من سنوات في العمل!»

أيده الكاهن وقال: «لماذا لا نعهد الأمور إلى الرجل الذي أدارها خلال السنوات الأخيرة؟»

حدق فيه كبير مشرفي السدود وقال: «لم أفهم يا حضرة الكاهن!»

لكن الكاهن أشار بإصبعه إلى القاعة الرئيسية، حيث بدا أن هاوكه يشرح بجدية متروية شيئاً ما لشخصين أسن منه. «ها هو واقف هناك!» صاحب الوجه المتطاول والعينين الذكيتين على جانبي الأنف النحيل تحت الجبهة البارزة! كان العامل القديم

وصار لديه الآن أرض صغيرة خاصة به؛ لكنه صغير السن بعض الشيء!

«يبدو في الثلاثين من العمر!» قال كبير مشرفي السدود، وهو يطيل النظر في الرجل الذي اقترحاه عليه.

وهنا قال مندوب الإدارة مانيرس «لم يتعد الرابعة والعشرين؛ لكن الكاهن على حق فكل ما تحقق من أمور جيدة للسد وبواباته في السنوات الأخيرة وكل مقترحات مكتب المشرف على السد كان بفضل مقترحاته؛ فالعجوز كف عن تولي الأمور».

«هكذا إذن» قال كبير مشرفي السدود؛ «وأنتما تريان أنه الشخص المناسب ليحل محل معلمه السابق؟»

إنه الرجل المناسب «قاطعه بيفة مانيرس» إنما ينقصه ما نسميه هنا أرضاً يسند إليها قدميه؛ امتلك والده خمسة عشر وربما عشرين قيراط أرض، لكن لم يسبق لأحد تولي إشراف على السد بمثل هذه الملكية الصغيرة».

هم الكاهن بقول شيئاً ما لما اقتربت منهم فجأة إيلكه فولكرتس التي مضى عليها بعض الوقت في الغرفة وقالت موجهة الخطاب إلى

كبير مشرفي السدود: «هل يسمح حضرتكم لي بكلمة؟ كل قصدي ألا يتحول خطأ إلى ظلم!»

«هيا تكلمي آنسة إيلكه! رد عليه هذا؛ يبدو وقع الكلمات الصادرة من شفتي آنسة جميلة جيداً في أي وقت!»

- لا يتعلق الأمر بالحكمة، إن سمحتم لي؛ كل ما أريده هو قول الحقيقة!»

«وهذا ما يفترض بالمرء سماعه آنسة إيلكه!»

تركت الصبية عيناها الداكنتين تنظر جانباً كما لو أنها تود التأكد من عدم وجود آذان فضولية: «سعادتكم» بدأت الحديث وصدرها يخفق يرتجف بشدة قال لكم عرابي، بيفة مانيرس، إن هاوكه هايين لا يمتلك سوى عشرين قيراطاً، وهذا صحيح حتى اللحظة، لكن في أقرب وقت، سيمتلك هاوكه الكثير بعد أن يتم تقدير قيمة هذا العقار، الذي كان لوالدي وصار لي، بما يساويه من قراريط الأرض؛ وسيكون هذا أكثر من كاف لمشرف السد».

أدار العجوز مانيرس رأسه الأشيب جهتها؛ كما لو أنه أراد التأكد من شخصية المتحدث: «ما هذا؟» قال لها: «ما الذي تتحدثين عنه يا طفلتي؟»

لكن إيلكه سحبت من لفافة سوداء خاتماً ذهبياً من عبها: «أنا مخطوبة، يا عرّابي مانيرس» قالت له: «ها هو الخاتم وهاوكه هايين هو رجلي».

- إنما متى؟ يجوز لي أن أسأل بما أنني عرابك يا إيلكه فولكرتس، متى حصل هذا؟

- قبل وقت طويل؛ أنما كان الأمر شفهياً قالت له: «كان وضع أبي بدأ بالتدهور، ولم أرغب بإقلاقه بهذا الأمر؛ والآن بعد أن صار بين يدي الرب، سيرى أن طفلته في أمان مع هذا الرجل. عزمت على التكتم على هذا خلال عام الحداد؛ أما الآن، ومن أجل هاوكه ومن أجل الأرض المحاطة بالمياه فقد وجب علي الكلام». ثم التفتت إلى كبير مشرفي السدود وقالت له: هل يقبل جنابكم مسامحتي!

تبادل الرجال الثلاثة النظرات؛ ضحك العراب، في حين اكتفى ممثل الإدارة بالهمهمة، في حين عقد كبير مشرفي السدود جبينه كما لو أنه في صدد البت بأمر مهم.

«أجل يا آنستي العزيزة» قال أخيراً: «إنما كيف تجري الأمور في هذه الناحية في ما يتعلق بحقوق الزوجين؟ أقر بأنني مشوش في هذه اللحظة، ولا أدري كيف أتصرف وسط كل هذا الاضطراب!».

قاطعته ابنة مشرف السد قائلة: «لست في حاجة إلى هذا، سأنقل أملاكي إلى زوجي قبل عقد القران. كما أنني أتصف بالكبرياء، وأود الزواج من أغنى رجل في القرية!»

وهنا قال الكاهن: «والآن يا مانيرس أظن أنك لن تمانع، بوصفك عرابها، أن أجمع بين مشرف السد الشاب وابنة مشرف السد القديم!».

هز العجوز رأسه بلطف وقال: «ليمنحهما الرب بركته!» قال بإخلاص.

وهنا مد كبير مشرفي السدود يده إلى الصبية: «تكلمت بصدق وحكمة يا إيلكه فولكيرتس، أشكرك على هذا الإيضاح الحاسم، وأتمنى أن تتاح لي مناسبات أفضل لأزور داركم؛ إنما أروع ما في الأمر هو تولي شاب بهذا العمر منصب مشرف السد!»

ومن جديد نظرت إيلكه بعينيها الجادتين إلى كبير مشرفي السد وقالت له، حضرتكم! إن الرجل الحقيقي جدير بأن يلقى عوناً من زوجته! ثم انتقلت إلى الصالة الرئيسية المجاورة ودست كفها بصمت في كف هاوكه هايين.

مرت سنوات عديدة ويعيش الآن في دار تيدة هايين الصغيرة رجل منكب على العمل وزوجته وطفلة، فقد عاش مشرف السد الشاب هاوكه هايين مع زوجته إيلكه فولكرتس في مزرعة والده.

وفي الصيف توشوش شجرة الدردار الباسقة قبالة الدار، إنما على المقعد الذي يقبع في ظلها غالباً ما يشاهد المرء السيدة وحيدة في العشيات وفي يديها بعض الأشغال المنزلية؛ ما يزال هذا الزواج مفتقراً إلى طفل؛ إنما لدى الرجل مشاغل أخرى، بدلاً من قضاء الأمسيات عند عتبة الدار، فعلى الرغم من أنه ساعد العجوز في السابق في إدارة العمل إنما ما يزال هناك العديد من الأمور غير المنجزة التي لم يهتم بها في السابق، أما الآن فعليه إزالة كل العقبات من الطريق مستخدماً مكانس حادة.

وإلى جانب هذا كان عليه الاهتمام بإدارة أرضه الخاصة التي اتسعت مساحتها ولا سيّما أنه أراد توفير تكاليف توظيف عامل يساعده؛ وهكذا لم يكن الزوجان يلتقيان، باستثناء أيام الأحد وقت الذهاب إلى الكنيسة، ووقت وجبة الغذاء التي يتناولها هاوكه بسرعة مع أفول النهار؛ كانت حياة عمل مستمر إنما كانت حياة هانئة.

بعدها سرت إشاعة مزعجة. فحين التقت مجموعة من صغار ملاك الأراضي من الشباب في الأهوار وفي الأرض العالية ذات أحد إثر العظة في فرقة مضطربة في المقصف هناك في الأعلى لاحتساء المشروب، لم يدر الحديث بعد الكأس الرابع أو الخامس حول الملك والحكومة - فلم يكن من الوارد النيل من أصحاب المقامات الرفيعة - بل انحصر الكلام بموظفي البلدية وبمشرف السد، ودار الحديث بشكل أساسي حول الضرائب المحلية، وكلما طال الحديث اختفت الرحمة من الأعين ولا سيّما لما وصل الحديث إلى بوابات السد ومسارات التفريغ التي يجب صيانتها باستمرار والتي صارت تحتاج إلى إصلاح؛ كما يتم باستمرار اكتشاف مواقع في جسم السد تحتاج إلى مئات من حمولات العربات من التربة؛ فليأخذ الشيطان المسألة برمتها!

«هذا بسبب مشرف سدنا الذكي الذي يفكر طيلة الوقت، ويتدخل في كل أمر» قال أحد الحضور.

«صحيح يا مارتن»، قال أولة بيترس الجالس جانب المتكلم؛ أنت محق، فهو متملق يسعى لتبييض صفحته أمام كبير مشرفي السدود؛ إنما افتُضِحَ أمره!

«لماذا تركتوه يدير شؤونكم؟» قال آخر وأردف «عليكم الآن دفع ثمن هذا نقداً».

ضحك أولة بيترس. «أجل يا مارتن فيدرس، هذا هو الحال عندنا، ولا يمكن فعل شيء لتغيره؛ إن مشرف السد القديم وصل إلى منصبه بفضل والده، في حين وصل المشرف الجديد إلى المنصب بفضل زوجته!».

وكان الضحك الذي تعالى حول الطاولة دليلاً على مدى استحسان الحضور لهذا الكلام.

لقد دار الحديث في العلن، ولا يمكن أن يظل محبوساً هنا، وسرعان ما جال في الأرض العالية وهناك في الأسفل في قرية الأهوار؛ ومن ثَمَّ وصل إلى هاوكه. ومن جديد دارت في مخيلته صفوف الأوجه الطافحة بالسوء، وسمع صدى الضحكات تلف حول الطاولة الملعونة بقوة فاقت وقعها الحقيقي. «كلاب!» صرخ وعيناه تحدقان بغضب في تلك الوجهة كما لو أنه أراد لسع أولئك الناس بسوطه.

وهنا لمست إيلكه ذراعه بيدها: «دعهم وشأنهم؛ كلهم يتمنون أن يكونوا في موقعك!»

- «هذا هو كل ما في الأمر!» رد هو بغضب. ثم أردفت هي، ألم يحاول أولة بيترس توسيع أملاكه؟

- «قام بذلك يا إيلكه، إنما ما ناله من زواجه بفيولينا لم يكن كافياً ليصبح مشرف سد!»

- «الأفضل أن تقول إنه لم يكن جديراً بهذا!» وأدارت إيلكه زوجها بحيث يُضطر لرؤية صورته في المرآة القائمة بين النافذتين في غرفتهما. «ها هو مشرف السد» قالت: «كل ما في الأمر أن من هو قادر على إدارة المنصب يناله!»

«لا يمكن القول إنك غير محقة» رد عليها ساهماً... كل ما في الأمر يا إيلكه؛ أن علي أن أقصد البوابة الشرقية، لا يجب إغلاق تلك البوابات!

أخذت كفيه في يدها: «هيا أرني ما الذي شخصت إليه عيناك بعيداً؟».

«لا شيء، أنت محقة يا إيلكه».

مضى؛ إنما لم ينقض على ذهابه وقتٌ طويلٌ حتى غاصت فكرة إصلاح البوابة في النسيان. ثمة فكرة أخرى لم تنضج بعد

في رأسه حملها معه منذ سنوات، إنما أهملها تحت ضغط مشاغل العمل، وها هي تستحوذ عليه من جديد أقوى من أي وقت مضى، كما لو أنه نبت لها جناحان فجأة.

وقبل أن يدري هو نفسه، وجد نفسه هناك في الأعلى فوق السد باتجاه الجنوب على مسافة من القرية القائمة في ذلك الاتجاه واختفت عن عينه من جهة اليسار؛ تابع طريقه وعيناه مثبتتان تحدقان في جهة البحر عند الأرض الواسعة؛ ولو مر أحد بجانبه لرأى في عينيه مدى عزمه على العمل. وأخيراً وقف ساكناً: هنا تتحول استطالة الأرض إلى نطاق ضيق على امتداد السد. «يجب أن ينجح الأمر!» قال محدثاً نفسه. «مضى علي سبع سنوات في الوظيفة؛ يجب عليهم الكف عن قول إنني مشرف على السد بفضل زوجتي ليس إلا!».

ما زال في مكانه، وعيناه تحدقان بحدة في كل الاتجاهات نحو العشب الأخضر الذي يغطي لسان الأرض الممتد؛ بعدها عاد أدراجه إلى هناك حيث يوجد أيضاً لسان ضيق من الأرض معشوشب. ضربت عاصفة من مياه البحر جسم السد بقوة عند الفاصل بين الأرض المستصلحة بأسرها وبين الأرض

اليابسة الذي يجعل منها جزيرة، ثمة جسر خشبي بدائي يفضي إلى هناك بحيث تتمكن الحيوانات وعربات النقل من التنقل بين الجهتين.

كان وقت جزر المياه، وأشعة شمس أيلول الذهبية تلمع على اللسان الضيق من الطمي الرطب الذي يصل عرضه قرابة مئة خطوة وفي وسطه قناة لتصريف المياه، رسم في ذهنه خطاً على امتداد الحافة الفاصلة بين الأرضيين، باتجاه الجنوب ليدور ويعود شرقاً فوق القناة القائمة هناك وصولاً إلى السد. إنما الخط الذي رسمه ساهماً كان سداً جديداً، وجديداً في تصميمه وبنائه، لم يسبق أن كان له مثيلٌ إلا في رأسه.

«هذا سيوفر أرضاً للاستصلاح تبلغ مساحتها ألف قيراط حدث نفسه ضاحكاً، ليست واسعة كفاية؛ إنما...»

ثم أجرى حسابات أخرى: إن ملكية أرض الطمي جماعية، أو بالأحرى هي ملك أفراد تبعاً لحجم ملكيتهم في أراضي البلدية أو تبعاً للاستحواذ بوضع اليد؛ وباشر عملية حساب مجموع الحصص التي ورثها عن والده، وكذلك الحصة التي ورثتها إيلكه عن والدها، والحصص التي اشتراها بنفسه خلال

زواجه استناداً إلى حدس غريب بأنها ستحقق له مزايا مستقبلية من جهة، وإشباعاً لنهمه بالتملك من جهة ثانية. و هناك أيضاً المساحات الواسعة التي اشتراها من أولة بيترس الذي انزعج من خراب أفضل أراضيه حين غمرتها مياه المد. إنما كان ذلك حدث مفرد، فبالاعتماد على ذاكرته لم يسبق أن غمرت مياه المد سوى أطراف الأرض.

يا للمراعي الخصبة والحقول التي سنحصل عليها حين تحاط كل هذه الأرض بسده الجديد! صعدت هذه الفكرة مثل غمامة غطت دماغه؛ إنما غرس أظافره في باطن كفيه وحدق بعينيه ليرى بوضوح ورزانة ما هو قائم أمامه: مساحة واسعة من سهل غير محمية بسد ومعرضة، من يدري؟ لعواصف وفيضانات خلال الأعوام القادمة، وليس فيها الآن إلا قطيع من الخراف القذرة يرعى ببطء؛ سيتطلب هذا منه جهداً ضخماً، صراعاً وسخطاً! وعلى الرغم من كل هذا فإنه حين عاد أدراجه عبر الدرب الترابي أسفل السد عبر الأهوار باتجاه التلة شعر أنه حمل معه إلى البيث كنزاً ثميناً.

لاقته إيلكه في الصالة وسألته: «كيف جرى الأمر مع البوابة؟»

نظر إليها بابتسامة طافحة بالأسرار: «سنحتاج قريباً إلى بوابة أخرى» قال لها وأردف «وكذلك مساقطَ وسداً جديداً!»

«لم أفهمك» ردت إيلكه، وهي تمضي إلى الغرفة،» ما الذي تسعى إليه يا هاوكه؟»

«أنا أود» قال ببطء ثم صمت لهنيهة، «أود تحويل أرض الطمي الواسعة، التي تقع في مواجهة موقعنا وتمضي غرباً إلى أرض مستصلحة يحيط بها سد، صحيح أن الفيضانات الضخمة تركتنا آمنين منذ جيل تقريباً، إنما حين يتكرر فيضان من النوع الأسوأ، ويخرب الزرع ويدمر، دفعة واحدة، كل المجد الذي بنيناه؛ التثاقل وحده أوصل الأمور إلى هذا الحد!»

نظرت إليه مندهشة: «أنت تدين نفسك بهذا!»

- أجل يا إيلكه؛ إنما كان هناك حتى الآن الكثير من المشاغل الأخرى!

«أعرف يا هاوكه أنك أنجزت الكثير!»

جلس على مقعد المشرف القديم الوثير، وأطبق كفيه بإحكام على المسندين.

«هل لديك الشجاعة للقيام بهذا؟» سألته زوجته.

«لدي هذا يا إيلكه» قال بحماس.

«لا تتعجل الأمر بهذه الطريقة يا هاوكه؛ هذه قضية حياة أو موت؛ الجميع تقريباً سيعارضونك، ولن يشكروا حرصك وانشغالك!»

هز رأسه وقال: «أعرف هذا»

«وفي حال عدم نجاح ذلك!» صاحت قائلة، «فمنذ زمن طفولتي سمعت أنه لا يجوز أبداً إيقاف قناة التصريف، ولهذا السبب لا يجوز المساس بها!»

«كانت تلك حجة الكسالى!» قال هاوكه: «لماذا لا يقدر المرء على سد قناة التصريف؟»

- «لم أسمع شيئاً عن هذا؛ ربما لأنها تخترق المكان وتصرف الماء بقوة عارمة». وخطرت على بالها ذكرى، وأسفرت عيناها الجادتان عن ابتسامة شبه شيطانية وقالت: «حينما كنت طفلة سمعت العمال يتحدثون حول هذا؛ قالوا أن استقرار السد هناك يتطلب التضحية بكائن حي ورميه هناك وبناء

السد فوقه؛ فوقت إنشاء سد في الجهة الأخرى قبل قرابة مئة عام، تم التضحية بطفل غجري، جرى شراؤه من أمه لقاء مبلغ كبير؛ أما الآن فلا يوجد من ترضى بيع طفلها**!**».

هز هاوكه رأسه**:** «من الجيد أن ليس لدينا طفل وإلا لما قبلوا بأقل من مطالبتنا به**!**»

«لن يحصلوا عليه**!**» قالت إيلكه وهي تحيط جسمها بذراعيها كما لو كانت مرعوبة.

ابتسم هاوكه؛ إنما عادت هي للسؤال**:** «وماذا عن التكاليف الباهظة؟ هل فكرت في هذا؟»

- فكرت فيه يا إيلكه؛ ما سنجنيه هناك يتجاوز بكثير التكاليف، ولا تنسي نفقات صيانة السد القديم التي سيتم توفيرها بفضل السد الجديد؛ سنقوم بالعمل بأنفسنا وهناك أكثر من ثمانين حصاناً في الناحية، ولا تنقصنا السواعد الفتية القوية. على الأقل أنت لم تجعلي مني مشرفاً على السد دون جدوى؛ أود أن أثبت لهم أنني جدير بهذا**!**. نظرت إليه من هامته حتى قدميه وركزت عينيها عليه بعناية؛ وأطلقت تنهيدة**:**

«علي العودة إلى أعمالي اليومية» قالت ويدها تداعب وجنته بلطف؛ «وقم أنت بعملك يا هاوكه».

«آمين يا إيلكه!» قال مع ابتسامة جادة؛ «ثمة عمل لكلينا!».

وكان هناك ما يكفي من العمل لكليهما؛ لكن الثقل الأكبر كان من نصيب كتفي الرجل. ففي وقت ما بعد الظهر، وغالباً ما يشمل هذا وقت ما بعد الاحتفال المسائي، كان هاوكه يجلب أداة جيدة لمسح الأرض، ويغرق في حساباته، وفي خط الرسوم وتحديد الشقوق؛ كان وحيداً، وغالباً ما استمر هذا طويلاً بعد منصف الليل. وكان يدخل بعدها غرفة النوم المشتركة، بعد أن استغنى عن استخدام الأسرة الجدارية القائمة في غرفة المعيشة، وكانت زوجته تستلقي مطبقة العينين كما لو كانت نائمة، فهي تريد منحه فرصة ليرتاح على الرغم من تسارع ضربات قلبها في انتظاره؛ وكان يلثم جبينها متمتماً بكلمات حب ويستلقي بدوره منتظراً النوم الذي لم يكن يأتيه غالباً إلا مع أول صياح الديك. كان يقصد السد وسط عواصف الشتاء، وبيده ورقة وقلمٌ، ويقف يرسم ويسجل ملاحظات، وتهب ريح تقتلع عمرته عن رأسه، وتدفع الشعر الطويل باهت اللون ليتطاير على وجهه، وقريباً، طالما أن الجليد

لم يقطع الطريق، سيركب زورقاً برفقة أحد المعاونين ويتجه إلى مياه البحر ويقيس هناك، مستعيناً بقضيب وخيط وشاقول، عمق وشدة التيارات التي لم يكن قد تأكد منها بعد. ولطالما ارتعشت إيلكه خوفاً عليه؛ إنما كان يعاود الكرة، وهكذا لم يكد يشعر بالأمر إلا من خلال ضغط يديها أو لمعان عينيها شديدتي الهدوء عادة «صبراً يا إيلكه» قال ذات مرة حين لم ترغب زوجته في تركه؛ «يجب علي التأكد من كل شيء قبل أن أرفع طلبي!» وهنا رضخت وتركته يمضي. كما أن زيارات كبير مشرفي السدود في المدينة لم تكن بالقليلة، وكانت كل الجهود المبذولة في الدار وفي الحقل تتلوها ساعات عمل طويل في الليل. وقد اختفى تقريباً تعامله مع باقي البشر خارج إطار العمل والشغل، حتى إن تعامله مع زوجته تراجع باستمرار. «إنها أوقات سيئة، ولن تستمر طويلاً» قالت إيلكه في سريرتها ومضت إلى عملها. وأخيراً، لما حطمت الشمس ورياح الربيع الجليد في كل مكان، كانت الأعمال التحضيرية قد أُنجزت؛ وتضمن الاقتراح الذي رفع إلى كبير مشرفي السدود، والذي يفترض أن يحول إلى مسؤول أعلى، مشروع إنشاء سد حول منطقة أراضي الطمي بهدف تحقيق

المصلحة العامة، ولا سيّما مصلحة أهالي الناحية والخزينة العامة التي ستتلقى خلال الأعوام القادمة ضرائب عن مساحة تقارب الألف قيراط، وتم صياغة الاقتراح بشكل جيد وأُرفق معه في مغلف متين مخططات ورسومات حددت مواقع كل البوابات الحالية وتلك التي ستنشأ في المستقبل وكل ما يتعلق بذلك، وختم بالختم الرسمي لمكتب الإشراف على السد.

«قد أنجز الأمر يا إيلكة» قال مشرف السد الشاب، «والآن امنحيه بركتك!» وضعت إيلكه كفيها في كفيه وقالت: «سنظل دائماً معاً».

«أجل سنبقى معاً».

بعدها أرسل المقترح إلى المدينة مع رسول على صهوة جواد.

قطع مدير المدرسة حكايته وقال: سيدي العزيز وثبت عينيه الودودتين علي، أود لفت انتباهكم بأن ما رويته لكم حتى الآن هو نتيجة ما جمعته من حكايات أناس أذكياء أو مما تناقله الأحفاد عن الجدود، طوال أربعين عاماً من عملي في هذه الناحية؛ وقمت أنا بحبك هذا ورويته لك لكي تتمكن من إيجاد الرابط بين ما حدث

في الماضي وخاتمة هذه الحكاية التي كانت وما تزال حتى الآن حديث الناس في كل القرية ما إن يحل موعد عيد كل القديسين.

إن وقف المرء على السد، على بعد يتراوح بين خمسمئة وستمئة خطوة عن دار مشرف السد باتجاه الشمال، يرى على بعد ألفي خطوة في مياه البحر الراكدة بعد تجاوز حافة الأهوار المجاورة، جزيرة صغيرة يسمونها «رمال يفيرس» و«جزيرة يفيرس». ومنذ عهد الأجداد استخدمت مرعىً للأغنام، حيث كان العشب في تلك الأزمان ينمو هناك؛ إنما توقف هذا، لأن الجزيرة الواطئة، كانت تغوص وقت المد مرتين في العام ولا سيّما في عز الصيف الأمر الذي جعل العشب يذبل ويصبح غير صالح علفاً للأغنام. وهكذا لم يعد يرد المكان أحد باستثناء النوارس وغيرها من الطيور، التي تطير فوق الساحل، ويزور المنطقة أحياناً نسر البحر؛ وفي الليالي القمراء يرى المرء من فوق السد ضباب يخيم عليها بكثافة متراوحة. ويمكن للمرء وقت سطوع ضوء القمر من الشرق على الجزيرة اكتشاف هياكل عظمية، ابيضت، عائدة لخراف غرقت، وكذلك هيكل عظمي لحصان لا أحد يدري كيف وصل إلى هناك.

كان ذلك في أواخر شهر آذار حين وقف عند ذلك الموقع بعد الاحتفال المسائي العامل المياوم في دار تيديه - هايين برفقة إيفن يونس، العامل المعاون لمشرف السد الشاب متجاورين، يحدقان دون حركة بالجزيرة التي لم تكدْ تُرى في ضوء القمر الشاحب؛ إذ بدا أن هناك شيئاً غير عاديٍّ ثبتهم هناك. دس العامل المياوم يده في جيبه وهز نفسه: «هيا يا إيفن» قال: «هذا ليس بالأمر المطمئن؛ دعنا نمضِ إلى الدار».

ضحك الآخر ضحكة نمت عن رعب: «ما هذا، إنه مخلوق حي، مخلوق ضخم! من هو بحق الشيطان، من الذي طارده إلى منطقة الطمي! انظر إليه لقد اشرأب عنقه باتجاهنا، ها هو ينحني مجدداً، يبدو أن يأكل! كنت أظن أن ما من شيء يمكن صيده هناك! لكن ما الذي يمكن أن يكونه؟».

«ما علاقتنا بهذا!» رد عليه الآخر. «ليلة طيبة يا إيفن، أنا سأمضي إلى الدار إن كنت لا ترغب بمرافقتي!».

- «أجل، أجل؛ لديك زوجة، وستندس في سرير دافئ! أما في غرفتي فتتسلل رياح آذار».

- «إذن ليلة سعيدة!» صاح العامل المياوم وهو يمضي من السد باتجاه الدار. نظر مساعد المشرف مرتين باتجاه الرجل الذي مضى؛ لكن الرغبة برؤية شيء غير عادي تمكنت منه بشدة. وهنا قدم خيال داكن على السد من جهة القرية قاصداً إياه؛ كان الفتى خادم مشرف السد. «ما الذي تريده يا كارستن؟» قال له مساعد المشرف.

«أنا؟ لا شيء» قال الفتى وأردف «إنما معلمنا يرغب بمحادثتك يا إيفن جونس!»

أدار مساعد المشرف عينيه مجدداً باتجاه الجزيرة: «أنا قادم على الفور».

«ما الذي تحدق فيه بهذه الطريقة؟» سأل الفتى.

رفع مساعد المشرف يده وأشار إلى الجزيرة. «أوه» قال الفتى: «إنه حصان، مهر أبيض، لا بدّ أن الشيطان هو الذي يمتطيه، كيف وصل حصان إلى جزيرة بيفرس؟»

- «لست أدري يا كارستن إن كان حصاناً حقيقياً!»

«أجل، أجل، إيف؛ انظر، هو يقضم مثل حصان! إنما من الذي قاده إلى هناك؛ لا يوجد لدينا في القرية قوارب بهذه الضخامة! قد يكون خروفاً لا أكثر؛ يقول بيتر أووم إن ضوء القمر يجعل الأشياء تبدو أكبر. لا، ها هو يقف على قائمتيه الخلفيتين، لا بدّ أنه حصان!»

ظل كلاهما واقفين بصمت لوهلة، وأعينهما مشرئبة باتجاه الخيال غير الواضح الذي رأياه. القمر في المحاق وسط السماء ينير المياه الواسعة، وبدأ المد العالي ينشر المياه على مساحات الطمي الكامدة. ما كان هناك سوى خرير المياه، ما كان من الممكن سماع صوت أي حيوان؛ وكذلك الأمر في الأهوار خلف السد، كان المكان خاوياً؛ فكل الأبقار والعجول كانت في الإسطبلات. لا شيءَ يتحرك؛ باستثناء ما خيل إليهما أنه حصان، حصان أبيض، بدا أنه ما يزال يتحرك هناك على جزيرة بيفرس. «صارت الرؤية أوضح» قال مساعد المشرف كاسراً الصمت؛ أرى بوضوح الهيكل العظمي للنعجة!

«وأنا أيضاً» قال الفتى واشرأب عنقه؛ وكما لو أنه انتبه لأمر ما فجأة وشدكم معاون المشرف وهمس: «إيفن، أين الهيكل العظمي للحصان الذي كان هناك؟ أنا لا أراه!»

«وأنا بدوري لا أراه! أمر غريب!» قال معاون المشرف.

«ليس الأمر غريباً إلى هذا الحد يا إيفن! أحياناً، ولست أدري في أي ليال، تنهض العظام وتتصرف كما لو أنها حية!»

هكذا؟، قال معاون المشرف؛ «هذه من معتقدات العجائز».

«ربما يا إيفن» رد الفتى؟

«إنما أرسلوك لاستدعائي؛ هيا؛ علينا الذهاب إلى الدار! سيظل الوضع هنا على حاله».

لم يرد الفتى التحرك، إلى أن أجبره معاون مشرف السد بعنف على الاستدارة وسلوك الدرب. «اسمع، كارتسن» قال الأخير بعد ما صارت جزيرة الأشباح خلفهم بمرحلة. «أظن أنك رياضي متمرس، وأنت تود استكشاف الأمر بنفسك!»

«أجل» رد كارستن ساهماً بعض الشيء، «أجل أود هذا يا إيفن!».

«هل أنت جاد؟»، قال المعاون بعد أن مد يده باتجاه الفتى ليحصل على رد قاطع. إذن لنأخذ غداً مساءً قاربنا؛ أنت ستبحر إلى جزيرة يفيرس، وأبقى أنا على السد مهما طال الأمر».

«أجل، موافق! سآخذ سوطي معي!»

«افعل ذلك!»

وصلا بصمت إلى دار معلمهما، وارتقيا الدرب الصاعدة إلى الهضبة المرتفعة ببطء.

وفي الوقت نفسه من العشية التالية جلس مساعد مشرف السد على صخرة ضخمة أمام باب الإسطبل، حتى قدم الفتى حاملاً سوطه بشكل ظاهر.

«يبدو أنه يلسع ويصفر في الهواء بشكل رائع» قال له.

«أكيد» أحذرك أنني غرست إبراً في الحبل رد الفتى.

«هيا بنا» قال الآخر.

بدا القمر معلقاً شرقي السماء كحاله في الأمس، وبدا ساطعاً في عليائه. وسرعان ما وصل الاثنان إلى السد، وحدقا النظر باتجاه جزيرة يفيرس. «عاد الوضع إلى حاله المعتاد» قال معاون المشرف، «كنت هنا بعد الظهر، لم يكن هناك شيءٌ؛ لكني رأيت بوضوح هيكل الحصان العظمي!»

اشرأب عنق الفتى ثم همس: «هو ليس هنا الآن يا إيفين!»

«والآن يا كارستن، كيف ترى الأمر» قال معاون المشرف: «أما زلت مصمماً على الإبحار إلى هناك؟»

حدق به كارستن طرفة عين ثم شق الهواء بسوطه: «كل ما عليك هو فك رباط الزورق يا إيفين!»

وهناك بدا أن الكائن القابع على الجزيرة قد مد عنقه وأدار رأسه باتجاه البر الرئيسي. غاب عن نظريهما؛ وانطلقا من على السد باتجاه موقف الزورق.

«والآن استقل الزورق» قال معاون المشرف بعد أن فك عقدة الحبل. «سأبقى حتى عودتك! عليك أن تقصد الشرق هناك يوجد دائماً مكان لرسو القارب».

وافق الفتى بإيماءةٍ صامتة وأبحر، مصحباً سوطه، في الليلة القمراء؛ وعاد معاون المشرف إلى السد، وتمركز في الموقع الذي سبق لهما الوقوف فيه. وسرعان ما رأى القارب يمر عبر موقع معتم معتمداً على المد وبدا أن هناك خيالاً قابعاً على الأرض. ألا يبدو الأمر كما لو أن الفتى يفرقع بسوطه؟ إنما يمكن أن يكون هذا صوت المد الآخذ بالارتفاع. ورأى على بعد عدة مئات من

الخطوات شمالاً ما خُيل إليهما أنه حصان أبيض؛ والآن! بدا خيال الفتى متجهاً نحوه بشكل مباشر. رفع رأسه كما لو انه يدعم الفتى الذي فرقع بسوطه بصوت واضح الآن. ما الذي يفعله؟ ها هو يعود أدراجه، سالكاً الدرب الذي قدم منه.

بدا أن ذلك الكائن يتابع الرعي دون انقطاع، ما كان بالإمكان سماع أي صهيل من هنا؛ وبدا أحياناً أن خرير المياه المنسكبة على الحصى يصل إليه.

هنا سمع صوت رسو القارب في المرسى، وسرعان ما رأى عبر الظلام الفتى يصعد السد باتجاهه.

«ما كان ذلك يا كارستن؟»

هز الفتى رأسه. «لا شيء!» «رأيت هذا وأنا على القارب؛ ثم حين وطَئِتْ قدماي الجزيرة ما كان حتى الشيطان ليعرف أين اختفى الحيوان، كان القمر ساطعاً بما فيه الكفاية؛ إنما حينما وصلت إلى الموقع، لم يكن هناك شيءٌ عدا بقايا عظام بضعة نعاج، وعلى بعد منها بقايا الهيكل العظمي للحصان وجمجمته الطويلة وانعكاس بريق ضوء القمر على المحجرين الفارغين!»

«هكذا!»، قال معاون المشرف؛ «هل أجلت نظرك بما يكفي؟»

«أجل، إيفن، وقفت هناك؛ ثمة شيطان عاق للرب، اندس في جريب لقضاء الليل، ثم طار صائحاً وأرعبني، ففرقعت بالسوط في اتجاهه».

«وكان هذا كل ما في الأمر؟»

«أجل يا إيفن؛ لا أعرف أي شيء آخر!»

«هذا كاف!» قال معاون المشرف، وسحب بيده الفتى إلى جانبه وحدق النظر باتجاه الجزيرة.

«هناك، هل ترى شيئاً يا كارستن؟»

حقاً، ها هو مجدداً!

«مجدداً؟» قال معاون المشرف؛ «واظبت طوال الوقت على التحديق، إنما لم يتغير شيء؛ أنت كنت في حجر الشيطان مباشرة!»

نظر إليه الفتى؛ اكتسى وجهه، السمح عادة، رعباً مفاجئاً لم يفت على الرجل ملاحظته. «هيا!» قال الرجل نريد العودة إلى الدار: «يبدو من هنا كما لو كان حياً، وهناك لا نجد سوى العظام، هذا

يتجاوز قدرتنا على الاستيعاب. الزم الصمت حول هذا، فلا يجوز للمرء الحديث عن مثل هذه الأمور!».

وهكذا استدارا؛ وهرول الفتى إلى جانبه؛ لم يتكلما، وكان الصمت مخيماً على الأهوار المحاذية لهما.

إنما بعد أفول القمر واشتداد ظلمة الليل، حدث شيء آخر.

قصد هاوكه هايين المدينة في موسم سوق الخيل، دون أن يكون له عمل هناك. وحين كان على درب العودة إلى الدار قرابة المساء، جلب معه حصاناً ثانياً إلى الدار؛ لكن كان خشن الوبر وناحلاً إلى حد يمكن للمرء عد أضلاعه، وكانت عيناه كامدتين وتعبتين في محجريهما. خرجت إيلكه كان ووقفت عند باب الدار لتستقبل زوجها المحبوب: «لتساعدنا السماء!» صاحت «ما الذي يفترض بنا فعله بهذا الحصان العجوز الأبيض؟»

ولما قاده هاوكه وربطه تحت شجرة الدردار، رأت أن المخلوق المسكين ناحل.

ترجل مشرف السد الشاب ضاحكاً، وقفز عن صهوة حصانه البني: «خلي عنك يا إيلكه؛ فهو لم يُكلِف الكثير!»

ردت الزوجة الذكية: «أنت تعرف تماماً أن الصفقات الجيدة تكون في أغلب الأحيان الأعلى كلفة».

- إنما ليس في كل الحالات يا إيلكه؛ لا يتجاوز عمر الحيوان أربع سنوات؛ دققي النظر فيه! إنه جائع وأُسيئت معاملته، سيلائمه الشوفان لدينا؛ وسأشرف على الأمر بنفسي، حتى لا يصاب بالتخمة».

وقف الحيوان منكس الرأس؛ وقد تدلَّى عرفه الطويل حول رقبته. وحين ذهب زوجها لينادي معاونه اقتربت السيدة إيلكه لتعاينه بنفسها؛ إنما هزت رأسها ودار في رأسها: «لم يسبق أن دخل إسطبلنا مثل هذا!»

وحين قدم المعاون الفتي من زاوية البيت، ظل واقفاً شاخص العينين.

«والآن يا كارستن»، صاح مشرف السد، «ما لذي فاجأك؟ ألا يعجبك حصاني الأبيض!»

- أجل يا معلمنا، لم لا يعجبني!

أمسك الفتى لجام الحصان الأبيض بحذر، ودس بين فكيه، على سبيل الحذر، لجام الحصان البني الذي كان يثق به. في حين مضى هاوكه مع زوجته إلى الغرفة؛ حيث كان في انتظاره جعة ساخنة وخبز وزبد.

وسرعان ما أنهى طعامه ووقف، وأخذ يقطع الغرفة ذهاباً وإياباً برفقة زوجته. «دعيني أحكي لك يا إيلكه» قال وظلال العشية تتلاعب على الجدار، «كيف حصلت على الدابة: كنت قد أمضيت ساعة كاملة عند كبير مشرفي السدود؛ كان لديه نبأ سعيد لي، سيكون هناك بعض التعديلات هنا وهناك على مخططي؛ إنما تم قبول مقترحي، وقريباً سيصدر الأمر ببناء السد الجديد!»

تنهدت إيلكه عن غير قصد: «بعد كل ما قمت به؟» قالت والقلق يملأ نفسها.

«أجل يا زوجتي!» رد هاوكه؛ سيكون الأمر صعباً، إنما أظن، أن السيد الرب جمع بيننا لهذا! أعمالنا هي في أفضل حال؛ ويمكن أن تحملي أنت قسماً كبيراً من العبء على كتفيك؛ كل ما علينا هو النظر إلى عشرة أعوام قادمة، وحينئذ سيكون في حوذتنا مُلكية مختلفة».

بادرت مع أول كلماته إلى احتضان يد زوجها لتطمئن بين كفيها؛ لم تُسعدها الكلمات الأخيرة. «لمن يفترض بنا ترك تلك الملكية؟» قالت؛ «عليك إذن الاقتران بامرأة أخرى؛ أنا لم أنجب لك أولاداً».

انهمرت الدموع من عينيها؛ لكنه احتضنها بقوة: «هذا أمر نتركه للرب» قال لها: «نحن ما نزال شابين، وسنظل شابين مدّة تسمح لنا بالتمتع بثمار عملنا».

نظرت بعينيها الداكنتين إليه مطولاً، وهو يحضنها. «عفواً يا هاوكه» قالت له : «أنا الآن زوجة يائسة!»

مال نحو وجهها وقبلها: «أنت امرأتي وأنا رجلك يا إيلكه ولن يكون هناك غير هذا!»

هنا أحاطت يديها بعنقه بشدة: «معك حق، هاوكه، وما سيأتي سيكون من نصيبنا كلينا.

ثم ابتعدت عنه على استحياء». «أردت إخباري عن الحصان الأبيض» قالت بصوت منخفض.

«أود هذا يا إيلكه، كان الفرح يعم رأسي وقلبي بفضل النبأ السعيد الذي نقله إلي كبير مشرفي السدود؛ وهكذا عدت ممتطياً

الحصان إلى المدينة، وهناك على الدرب خلف المرفأ التقيت رجلاً خشن المظهر؛ لم أعرف إن كان أفاقاً أو عامل مَرجل أو شيئاً من هذا القبيل. كان الرجل يجر الحصان الأبيض من رسنه؛ هنا رفع الحصان رأسه ونظر إلي بعينين فارغتين؛ بدا لي أنه أراد مني شيئاً ما؛ كنت في تلك اللحظة ثرياً بما فيه الكفاية.

«هيه، أيها المواطن» قلت له: «إلى أين تريد أن تمضي بهذا الناحل؟».

جمد الرجل في مكانه وكذلك فعل الحصان. «بيعه» قال الرجل ورمقني بنظرة ماكرة.

«إنما أعتقد» قال: «إنه حصان شجاع ولن أقبل فيه أقل من مئة تالير[1]».

ضحكت في وجهه.

«هيا» لا تضحك بهذه القوة؛ لستَ مضطراً للدفع! إنما لا حاجة لي به؛ معي سينفق؛ أما عندك فسرعان ما سيتغير مظهره!

---

(١) عملة فضية شاع استخدامها في أوروبا قرابة أربعمئة عام.

هنا ترجلت عن حصاني، ونظرت إلى فمه، ورأيت أنه حيوان فتي. «كم هو ثمنه؟» قلت بعد أن رمقني الحصان بنظرة توسل.

«أيها السيد خذه مقابل ثلاثين تالير!» قال الرجل: «وسأعطيك اللجام فوقه!»

وهنا يا زوجتي صافحت يد الرجل الممدودة التي بدت مثل المخلب. وهكذا حصلنا على الحصان الأبيض، وأظن أنه كان لقاء ثمن بخس كفاية! المثير للاستغراب أنه لما مضيت بالحصان سرعان ما سمعت ضحكاً خلفي، وحين أدرت رأسي رأيت الغجري؛ الذي كان ما يزال واقفاً ويداه خلف ظهره يقهقه مثل شيطان ضاحكاً ورائي».

«يا للفظاعة» صاحت إيلكه؛ سيترعرع عندك يا هاوكه فقط في حال لم يجلب الحصان الأبيض معه شيئاً من سيده السابق!

«سيترعرع بقدر ما في استطاعتي!» بعدها مضى مشرف السد إلى الإسطبل كما سبق له أن قال للفتى.

- إنما لم يقتصر الأمر على إطعام الحصان الأبيض تلك الليلة، بل قام بذلك دائماً بنفسه، ولم يدع الحصان يغيب عن عينيه؛ أراد إثبات أنه نفذ صفقة جيدة وهو لم يرغب في جميع

الأحوال في حدوث خطأ. - وبعد بضعة أسابيع ازدهر حال الحيوان؛ اختفى الوبر الخشن تماماً؛ وظهر جلد ناعم ميال إلى الزرقة، وحين جال به ذات يوم في باحة الدار، بدا رشيقاً ثابت القوائم. فكر هاوكه في البائع وتمتم في سريرته: كان الرجل أحمق أو وغداً سرق الحصان!

وبعد مدّة أخرى، ما إن يسمع وقع خطاه في الإسطبل كان الحصان يرفع رأسه ويقترب منه لاستقباله؛ وبدا أن للحصان وجهاً يسميه العرب الوجه الصحني؛ يلمع فيه زوج من العيون النارية. بعدها قاده إلى خارج الإسطبل، وشد عليه سرجاً خفيفاً، لكن لم يمتط صهوته إلا نادراً، وحمحم الحصان كما لو أنه يعبر عن فرحه؛ وقاد الدابة باتجاه حوض بناء السفن ثم إلى السد؛ وكان الفارس ثابتاً في مكانه، وحين وصلا إلى الذروة تحرك الحصان بهدوء أكبر وخفة .

وقف المعاونون في الأسفل عند الممر ينتظرون معلمهم. «هكذا يا جون» صاح الأخير وهو يترجل عن صهوة جواده، «عليك امتطاؤه واقتيادة إلى الهضبة حيث باقي الخيول؛ سيحملك كما لو كنت في المهد!»

هز الحصان الأشهب وضرب أرض الأهوار المشمسة بصخب، وبينما كان العامل يفك السرج ويشير للفتى أن يأخذه إلى غرفة التخزين؛ وضع الحصان رأسه على كتف سيده واستسلم لمداعباته. لكن حين حاول العامل امتطاء ظهره قفز جانباً بشكل مفاجئ ثم وقف دون حراك وعيناه الجميلتان متجهة إلى سيده. «هو هو يا إيفن» صاح الأخير وهو يساعد معاونه على النهوض؛ «هل أوقع بك أذى؟»

فرك وركه حانقاً: «لا، يا معلم، لا بأس؛ إنما لا يمكن إلا للشيطان امتطاء الحصان الأشهب»

«وأنا!» رد عليه هاوكه ضاحكاً. هيا اسحبه من اللجام وخذه إلى الهضبة.

وحينما نفذ العامل خجلاً الأمر، تركه الحصان الأشهب يقوده بهدوء.

- بعد بضع أمسيات لاحقة وقف العامل والفتى معاً أمام باب الإسطبل، اختفى الشفق خلف السد، وخيم الظلام الكثيف على الأرض المستصلحة؛ ونادراً ما كان يصل من الهضبة نباح مكتوم أو صرخة قُبَرة انتهت حياتها بانقضاض ابن

عرس أو جرذ المياه. استند العامل إلى دعامة الباب يدخن غليوناً قصيراً، لم يعد قادراً على رؤية نفحات دخانه؛ لم يتبادل بعد الحديث هو والفتى. كان هناك شيء ما جاثم على روح الأخير، وهو لم يدر كيف يفترض به أن يبادر العامل الصامت. «أنت يا إيفن!» قال في النهاية «هل تعرف بقايا الحصان على جزيرة بيفرس!»

- «ما الذي دهاه؟» سأل العامل.

- «أجل يا إيفن، ما الذي دهاه؟ لم يعد هناك؛ لا يمكن رؤيته لا في النهار ولا في ضوء القمر؛ قصدت السد قرابة العشرين مرة!»

- «هل تداعت العظام الرمة» قال إيفن وهو يتابع التدخين بهدوء.

- «لكنني قصدت المكان في ضوء القمر؛ لا يوجد شيء هناك في جزيرة بيفرس!»

- «أجل» قال العامل: «تساقطت العظام، ومن ثم لم يعد من الممكن رؤية شيء!»

- «لا تمزح يا إيفن! أعرف الآن، وأقدر أن أقول لك أين هي!»

- استدار العامل في اتجاهه بشكل مفاجئ: «إذن أين هي؟»

- «أين؟» كرر الفتى ساهماً. «هي في إسطبلنا؛ هي هناك منذ أن اختفت من على الجزيرة. وليس عبثاً أن المعلم يعلفه بنفسه كل الوقت؛ أنا متأكد من هذا يا إيفن!

أجال العامل لوهلة نظره في الليل. «هل أصابك الخبل يا كارستن» قال ثم أردف: «حصاننا الأشهب؟ إن كان هناك حصان حي فإنه هو بالتحديد! كيف يمكن لشاب واع مثلك تقبل حكايات العجائز هذه!»

إنما لم يكن الفتى مستعداً لتغيير رأيه: «إن كان الشيطان قد تقمص الحصان الأشهب، فلماذا لا يكون حياً؟ بل على العكس إن الأمر أدهى! فهو يرتعد في كل مرة حين حلول المساء مع دخوله الإسطبل حيث نضعه أحياناً في الصيف، ويدير رأسه جهته بعنف شديد.«ليأخذك الشيطان» دمدم؛ «لن نظل معاً وقتاً أطول!».

وهكذا سعى في السر للحصول على عمل آخر، أخبر معلمه وانتقل مع حلول عيد جميع القديسين للعمل لدى أوله بيترس.

وهنا وجد مستمعين مهتمين بحكايته عن حصان الشيطان لدى مشرف السد. كانت السيدة فولينا البدينة ووالدها الغبي، ومراقب السد السابق جيس هاردرس يصغون مرتعبين ويحكون لاحقاً لكل من لديه ضغينة في قلبه تجاه مشرف السد أو لكل من يهتمون بمثل تلك الحكايات.

ومع الوقت حلت نهاية شهر آذار ووصل من الإدارة العليا للإشراف على السدود أمر مباشرة تشييد السد الجديد. بادر هاوكه إلى دعوة كل مراقبي السد، والتقى الجميع هناك في الأعلى في النزل القريب من الكنيسة، واستمعوا إليه يتلو النقاط الرئيسية من الوثيقة التي أرسلها كبير مشرفي السدود، وأخبرهم في الختام بقرار اعتماد التصميم الذي وضعه هو، وأن السد الجديد لن يكون حاد المسقط كما كان الحال في السابق، بل ينحد تدريجياً باتجاه البحر؛ إنما لم يصغوا إليه بوجوه مشرقة، بل بعدم الرضا.

«أجل، أجل»، قال مراقب عجوز: «ليس لدينا هنا سوى الفوضى ولن ينفعنا الاحتجاج، لأن كبير مشرفي السدود يساند مشرفنا!».

«أنت محق تماماً يا ديتليف فينس»، رد عليه آخر؛ أشغال الربيع تنتظرنا، ويفترض بنا الآن تشييد سد أطول، وهذا يعني ترك أشغالنا.

«بمقدوركم إنجازه هذا العام» قال هاوكه: «لا يمكن إنجاز الأمور بهذه السرعة!»

لم يوافق إلا القلة. «أما تصميمك» صاح شخص ثالث: «فما الجديد الذي يحمله؛ فالسد سيكون واسعاً للغاية جهة البحر، من أين سنحصل على المواد ومتى سننجز العمل».

«إن لم يكن هذا العام، فسيكون في العام القادم؛ هذا على الأرجح مرتبط بنا نحن!» قال هاوكه.

جلجلت ضحكة قلقة بين الحاضرين. «إنما ما هو مبرر هذا العمل غير المجدي؛ فالسد لن يكون أعلى من القديم» صاح صوت جديد: «وأقصد أنه قائم منذ أكثر من ثلاثين عاماً!».

«ما قلته محق» قال هاوكه: «قبل ثلاثين عاماً تصدع السد القديم، وكذلك قبلها بخمسة وثلاثين، وكذلك قبلها بخمسة وأربعين عاماً؛ ومنذ ذلك الوقت، على الرغم من أنه قائم هنا، وهذا أمر مناف

للمنطق، وقد حمانا من تيارات المد العالية. إنما من المفترض أن يبقى السد الجديد مئة عام وأكثر؛ وهو لن يتصدع لأن ميلانه السلس باتجاه البحر سيمنع الأمواج من ضرب مواقع محددة، كما ستفوزون أنتم وأولادكم بأرض آمنة، وهذا هو السبب الذي دفع الحكومة وكبير المشرفين على السدود إلى مساندتي، وهذا بالتحديد ما يفُترض أن تروا أنه في مصلحتكم!».

ولّما لم يكن المجتمعون مستعدين للرد على الفور، نهض عجوز أشيب الرأس بحذر عن مقعده؛ كان، ييفيه مانرس، عراب السيدة إيلكة، الذي ظل بناء على رجاء هاوكه ضمن هيئة مراقبي السد.

«السيد مشرف السد هاوكه هايين»، تكلم قائلاً: «أنت تتسبب لنا بالكثير من القلق والتكاليف، كنت أتمنى لو أنك انتظرت حتى أرتاح في كنف الرب، إنما الحق معك، وهذا أمر لا يمكن أن ينكره إلا من يجافي العقل. علينا شكر الله كل يوم، لأنه، وعلى الرغم من كسلنا قد حفظ لنا الأرض المستصلحة من العاصفة ومن قوة المد؛ وقد آن الوقت التي يجب علينا فيه مد أيدينا للحفاظ عليها، وأن نبذل في ذلك كل معرفتنا وقوانا، وأن نكف عن تحدي صبر

الرب. أنا رجل عجوز أيها الأصدقاء؛ شاهدت سدوداً تُبنى وتتصدع؛ أما السد، الذي ألهم الله هاوكه هايين مشروعه والذي أقنع به الحكومة من أجلكم، فلن يعيش أحد منكم ليراه يتصدع، وإن لم تشاؤوا أنتم أن تشكروه بأنفسكم فإن أحفادكم سيقومون يوماً ما بإشعال شموع التكريم له!»

عاد ييفيه مانرس للجلوس، وسحب منديله الأزرق من جيبه ومسح قطرات العرق عن جبينه. كان الرجل معروفاً دائماً بوصفه كفئاً واستقامته لا يطالها الشك، ونظراً لأن الاجتماع لم يمل إلى تأييده، لذا التزم الصمت. لكن هاوكه هايين أخذ الكلمة؛ صحيح أن الجميع رأوا أنه صار شاحباً.

«أشكركم، يا ييفة مانرس لأنكم هنا ولأنكم قلتم كلمتكم؛ أما أنتم أعضاء هيئة المراقبين الآخرين فتريدون ترك عبء بناء السد على عاتقي أنا، عليكم على الأقل أن تدركوا أمراً واحداً أنه لم يعد هناك مجال لتغيير شيء، وعليه دعونا نقرر، ما الذي سنحتاج إليه!»

« تكلم!» صاح أحد المراقبين.

وضع هاوكه مخطط السد الجديد على الطاولة: وبدأ حديثه «ثمة شخص سأل من أين سنحصل على كل هذا القدر من التربة؟ أنتم ترون، مدى طول الأرض المستصلحة التي تحازي الغمر، فهناك خارج خط السد شريط من الأرض متروك؛ فمن هنا ومن الأرض المستصلحة باتجاه الشمال والجنوب من الجزيرة الجديدة حتى السد يمكننا أخذ التربة؛ لدينا في جهة الماء موقعٌ جيدٌ من الطمي، يمكن أن نأخذ من داخله أو من وسطه الرمل! إنما يجب في البداية الاستعانة بمساح ليقوم بتحديد خط السد الجديد على الأرض المستصلحة! والمساح الذي ساعدني في إعداد المخطط سيكون الأكثر ملاءمة للقيام بهذا.

لاحقاً سيكون علينا تدبير عربات، لنقل الطمي وغيره من المواد، من بعض المستوطنين هنا؛ وسنحتاج لطمر القناة وجانبي السد لجلب الرمل من مكان ما، لا يمكنني الآن تحديد، كميات الرمل التي سيتطلبها السد، ربما أكثر من كل ما هو متاح في الأهوار! دعونا نتشاور، كيف سننجز هذا كله ونتدبره؛ كما يجب إصلاح قفل فتحة التصريف الجديدة في الجهة الغربية المواجهة للمياه وعلينا لاحقاً تكليف نجار ماهر بالأمر».

التم شمل الحضور حول الطاولة، عاينوا المخطط بأعين شبه مطبقة، وبدؤوا الكلام؛ وبدا كما لو أنهم يفعلون ذلك فقط من قبيل ضرورة قول شيء ما. ولما وصلوا إلى مسألة اختيار مساح الأرض قال أحد الشباب: «لقد فعلتم هذا حضرة المشرف؛ وأنتم الأكثر دراية بالشخص المناسب لهذا».

لكن هاوكه رد عليه: «أنتم أقسمتم يمين، وعليكم إبداء رأيكم، لا قبول خياري يا ياكوب مايين؛ وإن كان لديكم رأي آخر فأنا أسحب اقتراحي!».

«أظن أنك على حق»، قال ياكوب مايين.

لكن أحد أكبر الحضور سناً لم يكون موافقاً تماماً؛ لديه ابن أخيه، لم تعرف الأهوار مساحاً أمهر منه، بل أنه يتفوق على والد مشرف السد الراحل تيدة هايين!

وهكذا تم مناقشة اختيار المساحين الاثنين واستقر الرأي أخيراً على تكليف كليهما المهمة. ولم يختلف الأمر فيما يتعلق بعربات النقل، وكذلك بموضوع توفير التبن وكل الأمور الأخرى، وعاد هاوكه إلى الدار متأخراً و شبه مستنزف على صهوة حصانه البني فقد كان ما يزال يمتطيه في ذلك الوقت.

لكن ما إن جلس على الأريكة القديمة، العائدة لسلفه الأكثر رزانة والألين عريكة، حتى بدت زوجته إلى جانبه: «تبدو شديد الإرهاق يا هاوكه»، قالت وهي ترفع بيدها النحيلة خصلة شعره عن جبينه.

«بعض الشيء!» رد عليها.

«هل سار الأمر إذن؟»

«سار الأمر» قال مع ضحكة مرارة؛ «إنما علي القيام بدفع العجلات بنفسي، وأن أفرح إن لم يحاول الآخرون عرقلة ذلك!».

«لكن ليس كلهم؟»

«لا، يا إيلكه؛ عرابك، ييفة مانرس، رجل طيب؛ كنت أتمنى لو كان أصغر ثلاثين عاماً».

وبعد بضعة أسابيع حين تم تحديد خطوط السد وتم استلام القسم الأكبر من عربات النقل، قام مشرف السد بجمع أصحاب الحصص في الأراضي المستصلحة التي تجاور السد وكذلك أصحاب الأراضي الواقعة خلف السد القديم في فناء الكنيسة؛ وعرض عليهم خطة توزيع العمل والنفقات ولسماع أي اعتراضات؛ وقد رضي

أولئك بإنجاز نصيبهم من العمل وتحمل النفقات طالما أن السد الجديد والبوابات الجديدة ستخفف نفقات صيانة السد القديم.

كانت هذه الخطة عملاً ثقيلاً على هاوكه، ولولا توسط المشرف الأعلى للسدود الذي زوده بمراسل وبموظف للتسجيل لما تمكن من إنجاز هذا العمل بهذه السرعة، على الرغم من أنه عمل في كل يوم جديد حتى وقت متأخر من الليل. وحينما كان يسعى، وقد أنهكه التعب، ليستريح، لم يكن يجد، كما كان الحال قبل ذلك، زوجته في انتظاره متظاهرة بالنوم، لأنها بدورها أنجزت كل العمل اليومي بحيث كانت تغط ليلاً في نوم عميق لا يمكن تعكير صفوه.

وحين قرأ هاوكه مخططه، ونشر من جديد الأوراق التي تركت على مدى ثلاثة أيام في الخان حتى يتفحصها الجميع، كان هناك رجال جادون نظروا نظرة تقدير لهذا الجهد الواضح، وكانوا بعد تفكير هادئ جاهزين لتأييد نهج مشرف السد؛ إنما كان هناك آخرون، ممن تم بيع حصصهم من الأرض الجديدة من قبلهم بالذات أو من قبل أهاليهم أو أشخاص آخرين احتجوا بأن عليهم دفع تكاليف الأرض المستصلحة الجديدة

التي لم تعد تعنيهم غافلين عن أن العمل الجديد سيخفض تكاليف العناية بالأراضي القديمة. كما كان هناك آخرون ممن باركوا الحصول على أراض جديدة، صاحوا أنه سيكون عليهم بيعها لقاء سعر بخس لأنهم لا يقدرون على تحمل أعباء مثل هذا العمل المرهق. أما أولة بيترس، الذي استند إلى دعامة الباب مكفهر الوجه فقد صاح وقتها: «فكروا في الأمر أولاً ثم ثقوا بمشرف سدنا! فهو يتقن الحساب؛ وقد حاز مسبقاً معظم الحصص، وهو نجح في الحصول على حصتي، وبعد أن حصل عليها قرر استصلاح أرض جديدة!»

خيم، خلال طرفة عين، صمت مطبق على المجتمعين إثر هذه الكلمات. وقف مشرف السد قبالة الطاولة التي نثر أوراقه عليها؛ رفع رأسه ونظر إلى أولة بيترس: «تعرف تماماً، يا أولة بيترس» قال متكلماً: «كيف تسيء إلي؛ وها أنت تفعل ذلك؛ لأنك تعلم أيضاً، أن الكلمات القذرة التي رميتني بها ستظل عالقة بي! أما الحقيقة، هي أنك أردت التخلص من حصتك وأنني كنت أحتاج إليها؛ وعليك أن تعرف أيضاً أن الكلمات التي تناقلها الناس شفاهاً بأنني لم أصبح مشرفاً على السد إلا

بفضل زوجتي وصلتني؛ وعلى هذا قررت أن أريكم جميعاً أنني أصبحت مشرفاً بناء على رغبتي التامة وهكذا، يا أولة بيترس، قمت بما يفترض أن يقوم به مشرف السد الذي سبقني. وإن كنت غاضباً لأن حصتك صارت من نصيبي فأنت سمعت أن هناك ما يكفي من الراغبين في بيع حصصهم بثمن بخس، فقط لأن العمل المرتبط بها سيكون كثير عليهم!».

انطلق تصفيق من قلة من الرجال المجتمعين، وخلال ذلك نهض العجوز بيفيه مانرس وصاح عالياً: مرحى، يا هاوكه هايين! الرب سيوفق عملك!.

لكن لم ينته الأمر، على الرغم من أن أولة بيترس صمت ولم يتفرق الناس إلا لتناول وجبة المساء؛ ولم يترتب الأمر إلا في الاجتماع الثاني؛ إنما لم يحدث هذا إلا بعد أن وافق هاوكه على تقديم أربع فرق بدلاً من الثلاث المحددة في الشهر القادم.

وأخيراً بدأ العمل بعد أن جابت أجراس عيد العنصرة المنطقة: بدون كلل نقلت العربات الطمي من الأهوار وتم وضعها وفق خطوط السد، لتعود العربات على الفور إلى الأرض المستصلحة؛

أما في منطقة إنشاء السد، فكان هناك رجال معهم رفوش ومعاول ومسحجات يدكون ما تم صبه في مكانه المحدد ويسوون سطحه؛ وتم جلب كميات هائلة من القش فُرشت على الأرض؛ ولم يكن ذلك بقصد تغطية المواد الخفيفة مثل الرمل والتربة الرخوة التي استخدمت في داخل الردم وحسب، وهكذا بدأ إنجاز قطع من جسم السد بشكل متدرج، وتم استخدام كميات كبيرة من القش للحماية من الأمواج التي تحِتُّ الردم. وكان هناك مراقبون تم تعيينهم يتنقلون هنا وهناك، وكانوا حين هبوب العاصفة يصرخون بأفواه مشرعة بالأوامر عبر الرياح والمطر؛ وكان مشرف السد خلال ذلك الوقت يمتطي حصانه الأشهب، الذي صار الآن في الخدمة، وكانت الدابة تخبُ مع خيالها هنا وهناك، وهو يوزع أوامره بنبرة سريعة وجافة، وقت كان يمدح العاملين، أو، وكان هذا كثير الوقوع، حين يوبخ بدون رحمة عاملاً متكاسلاً أو أخرقَ. «لا ينفع هكذا! كان يصيح ويردف: «لا يجوز أن يخرب السد نتيجة تقاعسك!» وما إن يطل من بعيد على الأرض المحصورة هناك في الأعلى حتى تتعالى الأصوات» هيا إلى العمل! فارس الحصان الأشهب هنا!

كان ذلك قرابة وقت الإفطار، إذ يتوزع العمال على مجموعات ويقعدون على الأرض لتناول وجبة الصباح، وقاد هاوكه حصانه على امتداد ساحة العمل المتروكة، وكانت عيناه ثاقبتين تبحثان عن موقع خلل في العمل. لكن حين كان يقود حصانه آفلاً إلى موقع العمال ويشرح لهم كيف يفترض بهم تنفيذ العمل؛ كانوا يتحاشون النظر، إليه ويتابعون قضم خبزهم بصبر؛ دون أن يسمع منهم موافقة أو حتى أي ملاحظة.

ذات مرة وفي مثل ذلك الوقت من النهار، وكان الوقت متأخراً، عثر في موقع على السد على عمل غاية في الإتقان، قاد حصانه إلى أقرب مجموعة من الرجال الذين كانوا يتناولون الإفطار، ترجل عن حصانه وسأل بحماس، من الذي قام بهذا العمل المتقن هناك؛ لكنهم نظروا إليه خجلين بنظرات مظلمة، وببطء ذُكر بعض الأسماء. أما الرجل الذي عهد إليه بحصانه الذي وقف هادئاً مثل خروف، فأمسك بالرسن بكلتا يديه ونظر كما لو كان الرعب قد أخذ به إلى عيني الدابة الجميلتين، المثبتين، كالعادة، على سيده.

«ماذا هناك يا مارتن» صاح هاوكه، «تبدو كما لو أن صاعقة ضربتك؟»

- «سيدي، حصانكم هادئ للغاية، كما لو أن لديه نوايا سيئة!»

ضحك هاوكه وأخذ رسن الحصان الذي أسند بحب رأسه على كتفه. نظر بعض العمال بخجل إلى الحصان وفارسه، في حين تابع آخرون إفطارهم كما لو أن الأمر لا يعنيهم. بعد ذلك حين بدأت النوارس باكتشاف مصدر للغذاء فانقضت بأجنحتها الرشيقة تكاد تلامس رؤوس الرجال. نظر مشرف السد، ساهماً، إلى الطيور التي تتوسل الغذاء، وتلتقط الفتات بمناقيرها؛ وقفز إلى السرج وقاد الحصان، دون أن يلتفت إلى الرجال بدا له أن بعض الكلمات التي تبادلوها كان لها مثل وقع التهكم. «ما هذا؟» قال في دخيلته. «هل كانت إيلكه محقة، بأنهم كلهم ضدي؟ حتى هؤلاء العمال والناس البسطاء، الذين ستزدهر بيوتهم بفضل سدي الجديد؟»

ونخز حصانه بمهمازيه، فانطلق إلى الأرض المستصلحة مثل مجنون. من المؤكد أنه لم يدر هو بالذات مدى تألقه في الثياب التي ساعده على ارتدائها خادمه السابق؛ إنما كان على الناس رؤية كيف حدقت فيهم العينان وسط الوجه الناحل، وكيف تطاير معطفه وهو على ظهر حصانه الأبيض المنطلق.

- وهكذا انقضى الصيف والخريف؛ واستمر العمل حتى نهاية تشرين الثاني، بعدها أوقف الصقيع والثلج العمل؛ لم يُنجز العمل وتقرر ترك الأرض المستصلحة مفتوحة. ارتفع السد ثمانية أقدام عن سطح الأرض؛ وتم ترك فتحات على الجانب الغربي؛ إذ يُفترض وضع البوابات؛ كما تم ترك القناة هناك في الأعلى في مواجهة السد القديم دون أن يلمسها أحد. وهكذا يمكن للمد، كما كان عليه الحال في الثلاثين سنة الأخيرة، التدفق إلى الأرض المستصلحة دون أن يتسبب بأضرار كبيرة هناك أو بالسد الجديد. وهكذا تُرك عمل أيدي البشر في عهدة الرب العظيم رجاء أن يحظى بحمايته، إلى أن تسمح شمس الربيع بإكمال العمل.

*

وخلال تلك الفترة ظهرت في بيت مشرف السد تباشير حدث سعيد، ففي السنة التاسعة من الزواج وُلِد طفل. كان أحمر اللون مثل تفاحة ويزن سبعة ليبرات، كما هو المعتاد مع المواليد الجدد حينما ينتمون إلى جنس الأنثى كحال هذه الطفلة؛ إنما كان صراخها حاداً بشكل يثير الاستغراب ولم يعجب الأم المنهكة. أما

أسوأ ما حدث فكان إصابة إيلكه بحمى النفاس في اليوم الثالث، أصيبت بالهذيان وعجزت عن التعرف على زوجها أو على مساعدتها العجوز. وتراجعت الفرحة العارمة التي حلت بهاوكه لرؤية طفلته، ليحل محلها قلق عميق؛ تم استدعاء طبيب من المدينة، جلس قبالة السرير وجس النبض، وبدا شاحباً فاقد الحيلة يجيل بصره في المكان. هز هاوكه رأسه: «لن يستطيع تقديم عون؛ الرب وحده قادر على هذا!» جالت في ذهنه قناعته المسيحية إنما كان هناك شيءٌ ما منعه من الصلاة. وما إن مضى الطبيب العجوز حتى وقف أمام النافذة محدقاً بصره في هذا اليوم الشتائي، في حين كانت المريضة تصيح تحت تأثير الهذيان، شبك أصابعه؛ لم يدر إن كان ذلك بسبب الإيمان، أم من الضياع أمام هذا الخوف الرهيب.

«البحر! البحر!» كررت المريضة. «أنقذني!» صرخت: «أنقذني يا هاوكه!» بعدها خمد الصوت؛ وبدا كما لو أنها تبكي: «في البحر، في البحر الشاسع؟ أيها الرب الطيب، لن أراه أبداً مرة ثانية!»

هنا استدار وذهب إلى غرفة الممرضة وجلبها من فراشها؛ وخر على ركبتيه، وعانق زوجته وضمها إليه: «إيلكه! إيلكه، أنت تعرفينني، أنا هنا معك!»

إنما اكتفت بفتح عينيها المشعتين تحت تأثير الحمى، وأدارت النظر حولها كما لو كانت محكومة بالضياع.

أراحها من جديد على وسائدها؛ وشبك يديه: «سيدي، إلهي» صرخ، «لا تأخذها مني! أنت تعلم أنني لا أقدر على العيش دونها!»

بدا أن هناك خاطرة مرت في ذهنه، فأردف بصوت منخفض: «أنا أعرف تماماً أنه حتى أنت لا تقدر على فعل كل ما تريد على الدوام، وأنك ستعمل بدافع من حكمتك، يا سيدي خاطبني ولو بنفحة نفس».

وبدا كما لو أن السكينة نزلت عليه فجأة؛ لم يسمع سوى تنفس خافت؛ وحين التفت إلى السرير، كانت زوجته غارقة في نوم هادئ والممرضة تحدق فيه بعينين هلعتين. سمع صوت إغلاق الباب. «من كان هذا؟» سألها.

«سيدي، الخادمة آن غريت هي التي ذهبت، أتت إلى هنا جالبة كيس الماء الساخن».

«لماذا تنظرين إلي بعينين فزعتين سيدة ليفكة؟»

«أنا؟ صدمتني صلاتك؛ ما من أحد يبعد الموت بمثل هذه الصلاة!»

نظر إليها هاوكه بعينيه الثاقبتين: «هل ترتادون بدوركم، مثل عزيزتنا آن غريت، الدير حيث يعظ الخياط الهولندي يانتيه؟».

«أجل، سيدي، نحن نتشارك الإيمان الحي!»

لم يرد عليها هاوكه. ففي تلك الفترة ازدهرت الأديرة المنشقة في مقاطعة فريزة، يقصد المكان حرفيون وبعض المدرسين المفصولين بسبب معاقرة الخمر، وفتيات، ونساء شابات وعجائز، وبعض الفاشلين وبعض الذين يشعرون بالوحدة، ويجتمعون في الملتقى السري حيث يمكن لكل فرد تأدية دور الكاهن.

ومن دار مشرف السد كانت آن غريت والخادم الذي يعشقها يمضيان هناك أمسيات عطلهما. بطبيعة الحال لم تخف إيلكه شكوكها حول هذا عن هاوكه؛ أنما كان رأيه أنه لا يجوز التدخل في شؤون معتقدات الآخرين، وأن هذا لا يضر أحداً وهو أفضل من أن يرتادا حانة تقدم المشروب.

وانتهى الأمر عند هذا، وتمسك هو بالكتمان. لكن وكما هي العادة لم يلزم الجميع الصمت؛ انتقلت الكلمات التي تلاها في صلاته من بيت إلى بيت: قيل إنه أنكر قدرة الرب الكلية؛ ما هو هذا الرب الذي يفقتد إلى القدرة الكلية؟ كان جاحداً للرب؛ وعليه فإن حكاية حصانه الشيطاني يمكن أن تكون في النهاية صحيحة.

لم يدر هاوكه بشيء من هذا؛ ففي تلك الأيام كانت أذناه وعيناه مثبتتين على زوجته، حتى إنه نسي الطفلة كما لو أنها لم تكن حاضرة في هذا العالم.

عاد الطبيب العجوز مريضته يومياً، وأحياناً مرتين في اليوم الواحد، بقي ليلة بطولها، وكتب وصفات أخرى، وامتطى الخادم إيفين يونس حصاناً وطار إلى الصيدلية. بعدها صارت سحنته أكثر وداً، وأسر لمشرف السد بثقة: «الأمور على ما يرام! قُضي الأمر بفضل الرب!» وذات يوم تمكن فنه من قهر المرض، أو أن صلاة هاوكه وجدت طريقها إلى الإله الطيب، وحينما كان الطبيب وحيداً مع المريضة، قال وعيناه تبرقان: «سيدتي، يمكنني الآن أن أقول لك بثقة أن هذا اليوم هو عيد بالنسبة للطبيب، بدت الأمور سيئة للغاية بالنسبة لحضرتكم إنما ها أنتم قد رجعتم إلينا، إلى الأحياء!».

هنا تدفق من العينين الداكنتين بحر من الضياء: «هاوكه! هاوكه، أين أنت؟» صاحت ولما لبى النداء ودخل الغرفة واقترب من سريرها، أحاطت عنقه بذراعيها: «هاوكه، يا زوجي أنا نجوت، وسأبقى قربك!».

هنا أخذ الطبيب العجوز منديله من جيبه، ومسح جبينه ووجنتيه، وخرج من الغرفة منكس الرأس.

في الأمسية الثالثة بعد ذلك اليوم تكلم في الدير خطيب ورع في حضرة الخياط الهولندي، كان نعّالاً صرفه مشرف السد من العمل، وقال إنه يرغب في أن يعرض أمام الحضور صفات الله: «لكن من يشكك بقدرة الرب الكلية، من قال: أعلم، أنك غير قادر على تنفيذ إرادتك، ونحن جميعاً نعرف البائس، فإنه بذلك يرمي الجماعة بحجر، ويخرج من رعاية الرب، ويسعى إلى الحصول على العزاء من عدو الرب صديق الخطيئة. وأنتم عليكم أخذ حذركم منه، من يصلي بهذه الطريقة لا تُقبل صلاته».

- دار هذا، بدوره، من بيت إلى بيت. ما هو الأمر الذي يُمكن ألا يشيع وسط جماعة صغيرة؟ ومن ثَمَّ وصل إلى أذني هاوكه. لم ينبس بكلمة حول هذا، ولا حتى لزوجته؛ إنما بين

حين وآخر كان يضمها ويلصقها بصدره: «حافظي على ثقتك بي إيلكه! ثقي بي!» وقتها كانت عيناها تتسعان دهشة وهما ترمقانه: «أثق بك؟ بمن غيرك يُفترض بي أن أثق ؟».

إنما بعد فترة قصيرة أدركت فحوى كلماته: «أجل يا هاوكه نحن نتبادل الثقة، وليس فقط لأن واحدنا يحتاج إلى الآخر». بعدها مضى كل واحد إلى عمله.

سارت الأمور بشكل جيد؛ لكن على الرغم من كل العمل الضاج بالحياة أحاطت الوحدة به، وعشش في قلبه موقف تحفظ صارم تجاه الآخرين؛ ولم يحتفظ بود لم يتأثر بالوقت إلا لزوجته، وكان يركع على ركبتيه في المساء والصباح أمام مهد طفلته، كما لو أنه وجد هناك خلاصه الأبدي. صار أشد صرامة مع الخدم والعمال؛ والهنات والسقطات التي كان يتعامل معها بصبر صارت الآن تقابل بتأنيب شديد، وتدخلت إيلكه أحياناً لتلطيف الوضع.

ومع اقتراب الربيع، استؤنف العمل في السد؛ تم إغلاق القناة غربي خط السد، بسد مؤقت لحماية البوابة الجديدة، اتخذ شكل هلال باتجاه الداخل وانحناء مماثل إلى الخارج؛ وترافق

التقدم في إنجاز البوابة باستمرار رفع السد الرئيسي تدريجياً إلى المستوى الذي يفترض أن يكون عليه. لم يكن عمل مشرف السد بالسهل، إذ إنه تم استبدال بيفة مانرس الذي مات في الشتاء بأولة بيترس مراقباً رئيسياً. لم يحاول هاوكه منع هذا، إنما بدلاً من كلمات التشجيع والتربيت على كتفه اليسرى التي كان يحصل عليها من قبل عراب زوجته، صار عليه الآن مواجهة معارضة سرية و اعتراضات غير ضرورية كان عليه الرد عليها بمسوغات غير ضرورية؛ فقد كان أولة من الأشخاص الأكثر أهمية، إنما لم يكن من بين المتمرسين بشؤون السد؛ وهو وجد سكرتير الكتابة في طريقه كالعادة منذ الماضي.

خيمت السماء البراقة من جديد على البحر والأهوار، ومن جديد عادت الأبقار الضخمة إلى الأرض المستصلحة، واخترق خوارها، من حين لآخر، الهدوء المهيمن؛ وغنت القبرات في السماء العالية، إنما لم يكن المرء يسمعها، إلا بعد صمتها عن الغناء لالتقاط أنفاسها. لم يترد الطقس ليزعج العمل، وانتصبت البوابة بهيكلها العاري من الطلاء، ولم تحتج إلى حماية معتمدة على السد المؤقت إلا لليلة واحدة؛ وبدا أن الرب الإله أسبغ بركته على العمل الجديد.

كما كانت السيدة إيلكه تستقبل زوجها بعينين ضاحكتين حين يترجل عن صهوة جواده الأشهب عائداً من السد هناك إلى الدار: «هل صرت حيواناً مطيعاً!» قالت وهي تداعب عرفه الأبيض. أما هاوكه فكان يقفز عن حصانه حينما تكون الطفلة معلقة بعنق أمها ويأخذها بين يديه ويؤرجحها؛ ولما كانت الدابة تركز عينيها البنيتين على الطفلة كان يقول: «تعال يجب أن تحظى بهذا الشرف!» وكان يضع فينكه الصغيرة، فهذا كان اسمها الذي عُمدت به، على السرج ويقود الحصان الأشهب في دوائر.كما أن شجرة الدردار حظيت بفرصة المشاركة في هذا الشرف، وكان يضعها على فرع متأرجح ويتركه تتأرجح. كانت الأم تقف بعينين ضاحكتين عند عتبة الدار؛ لكن الطفلة لم تضحك، فعيناها اللتان قام بينهما أنف دقيقٌ بدتا تنظران بشيء من الغباء إلى بعيد، والكفتان الصغيرتان لم تطبقا على العصا التي قدمها الأب لها. لم يكترث هاوكه بالأمر، وهو لم يكن يعرف شيئاً عن الأطفال الصغار؛ أما إيلكه فحين كانت تنظر إلى عيني ابن مساعدتها البراقتين، الذي أنجبته في وقت متزامن مع مولد طفلتها، بين ذراعي أمه كانت تقول بين حين وآخر بألم: «إن طفلتي لا تجاري ابنك يا شتينا!» وكانت السيدة التي

كانت ترمق طفلها البدين بحب وهي ممسكة بيده ترد: «أجل يا سيدتي، الأطفال يختلفون؛ فهذا كان يسرق التفاح من غرفتي قبل أن يبلغ الثانية من العمر!» وكانت إيلكه تبعد شعر الطفل البدين عن عينيه وتشد بحنان طفلتها الهادئة إلى قلبها.

ومع اقتراب شهر تشرين الأول، انتصبت البوابة الجديدة بثبات على الجانب الغربي، مستندة إلى جانبي السد الرئيسي الذي أشرف من علو خمسة عشر قدماً على الماء، وانحدر بخط لطيف باتجاه اليم باستثناء الموقع المخصص للقناة. وكان يمكن للمرء أن يتجاوز بنظره من الزاوية الشمالية الغربية جزيرة بيفرس ليصل إلى مياه البحر بعيداً؛ لكن كانت الريح تهب بشكل أقوى، وكان الشعر يتطاير، كان على المرء تثبيت قلنسوته على رأسه.

ومع نهاية تشرين الأول، حين هبت العواصف والأمطار، لم يكدْ يتبقَّى إلا إغلاق الوادي المشرف عليه السد، الذي عبر أرضه في الجانب الشمالي ستتدفق مياه البحر عبر القناة إلى الأرض المستصلحة الجديدة. وانتصب جدارا السد على الجانبين؛ ومن المفترض أن تختفي الهاوية بينهما. كان يمكن للطقس الصيفي الجاف تسهيل العمل؛ إنما هكذا يجب أن يتم العمل إذ إنَّه من

الوارد أن تعرض عاصفة شديدة كل العمل إلى الخطر. جهز هاوكه كل الأمور المطلوبة لإنجاز العمل. هطل المطر، وهبت الريح، لكن كان وجهه النحيل وهو على صهوة الحصان الأشهب الجامح يظهر حيناً هنا وحيناً هناك ليطل على الكتلة البشرية المنغمسة في العمل في الأعلى وفي الأسفل عند الجهة الشمالية للسد قرب الوادي.

والآن يراه المرء في الأسفل قرب العربات، التي يفترض بها نقل الطمي من الشاطئ، وكان هناك مجموعة منها وصلت إلى القناة، وباشرت إفراغ حمولتها هناك.

وتحت قرع المطر وهدير الريح، علا صوت مشرف السد بين وقت وآخر بالأوامر الصارمة، فهو الوحيد الممسك بزمام الأمور اليوم؛ كان ينادي سائقي العربات بأرقامهم ويأمر المتجمعين منهم بالعودة؛ وكان العمل بأسره يتوقف لدى سماع صوته يصيح «توقف!»؛ أرسلوا حمولة إلى الأسفل! نادى أولئك القائمين في الأعلى، وكانت حمولة طين ترمى من الأعلى، وتنتشر على الطمي الرطب في الأسفل.

وكان الرجال خلال ذلك يتقافزون في الأسفل ويتفرقون صائحين مطالبين من هم في الأعلى أن يحرصوا على عدم دفنهم. وكانت عربات جديدة تصل باستمرار، وكان هاوكه في الأعلى من جديد يراقب الوادي، ممتطياً حصانه الأشهب، ويتابع كيف يقومون بتسوية الحمولة بالأرض ودكها؛ ونقل بعدها عينيه باتجاه البحر. هبت الريح بقوة، ورأى اشتداد ضربات المياه على السد، وكذلك ارتفاع مستوى الأمواج، كما شاهد كيف كان البلل يقطر من الرجال الذين لم يكد يتمكّنوا من التنفس منهمكين في عملهم المضني في وجه الرياح والأمطار الباردة التي قطعت أنفاسهم «اصمدوا، أيها الناس! اصمدوا!» صرخ منادياً إياهم؛ «لم يتبق سوى ارتفاع بمقدار قدم آخر؛ وسيكفي هذا لصد المد!. ووسط كل صخب العاصفة كان بمقدور المرء سماع ضجيج العمال: وقع صب الطمي الذي تتم تسويته بالأرض، صرير العربات، وحفيف القش المتروك في الأعلى المستمر بلا توقف؛ وأثناء ذلك علا نباح كلب أصفر، دار مرتجفاً مثل التائه وسط البشر وأدواتهم؛ وفجأة علا نواح الحيوان الصغير من الوادي، أجال هاوكه بصره في ذلك الاتجاه؛ وشاهده من الأعلى يغوص، واحمر وجهه غضباً. «كفوا عن هذا!» صاح منادياً العمال لأن رمي الكلب بالطمي لم يتوقف.

«لماذا؟ رد عليه صوت أجش من تحت؛ ولا حتى هذا الكلب البائس؟» «كفى قلت لكم!» صاح هاوكه من جديد؛ «أعطوني الكلب! لا أريد تلويث عملنا بأي جريمة!»

لكن لم تتحرك أي يد؛ كان هناك بعض الرفوش التي تقطر طمي قرب الكلب النابح. هنا همز جواده، الذي أطلق صهيلاً، وانطلق من على السد، وتفرق الجميع من طريقه.

«الكلب!» صاح فيهم؛ «أريد الكلب!».

ربتت يد لطيفة على كتفه، كما لو كانت يد العجوز بيفه مانرس، وحين - التفت رأى أنه أحد أصحاب العجوز. «احذر، حضرة مشرف السد» همس له «ليس لديكم أصدقاء بين هؤلاء الناس؛ دعهم وشأنهم بخصوص الكلب!»

هبت الريح، وهطل المطر، غرس الرجال المجارف في الطمي، وبعضهم رماها. مال هاوكه جهة العجوز وسأله: «هل بإمكانكم إمساك حصاني، يا هاركه بِنس؟» وما إن أصبح الرسن في يده، حتى قفز هاوكه وضم الكلب الناحب بيده؛ وفي اللحظة نفسها قفز مجدداً إلى السرج، وانطلق عائداً باتجاه السد. أجال البصر بين

الرجال الواقفين قرب العربات. «من فعل هذا؟» صاح بهم «من الذي رمى هذا المخلوق؟».

صمت الجميع طرفة عين، فالغضب كان واضحاً على وجه مشرف السد؛ وكانوا يخشونه تطيراً منه. هنا تقدم رجل متين البنيان. «أنا لم أفعل هذا حضرة مشرف السد» قال وقسم مضغة تبغ، أدارها بهدوء في فمه؛ «إنما من قام بهذا، فعل الصواب؛ إن أردتم أن يصمد سدكم؛ فلا بد من ضحية حية!»

«ضحية حية؟ من أي تعاليم مسيحية استقيت هذا؟»

«ليس من التعاليم المسيحية، سيدي!» أجابه الرجل، واندفعت من حلقه ضحكة صفيقة؛

«هذا أمر عرفه أجدادنا، الذين كانوا، وفق ما أعرف، مسيحيين طيبين مثلكم! بل التضحية بطفل أفضل؛ وحين لا يتوفر طفل، يمكن تدبر الأمر بكلب!»

«اصمت ودعنا من تعاليمك الوثنية» صرخ فيه هاوكه،«ربما كان من الأفضل رميك أنت هناك».

«أوهو!» انطلقت عالية من مجموعة حناجر، وأحاط بمشرف السد وجوه كالحة وقبضات مضمومة، ورأى تماماً أنهم لم يكونوا

أصدقاء؛ واقتحمت فكره خاطرة تتعلق بالسد هزت كيانه: ما الذي يُفترض أن يحدث إن رمى الجميع مجارفهم؟ ولما وجه نظره إلى الأسفل رأى من جديد صديق العجوز ييفه مانرس؛ الذي ذهب هناك بين الرجال وخاطبهم الواحد تلو الآخر، ضاحك واحداً هنا، وربت على كتف آخر، وسرعان ما أمسك الواحد تلو الآخر بمجارفهم؛ وبعد طرفة عين عاد العمل بكل زخمه.

ما الذي يريده أكثر من هذا؟ سيتم سد القناة، والكلب رابض مطمئن في ثنايا معطفه. بتصميم مفاجئ وجه حصانه الأشهب باتجاه مجموعة الرجال القريبة: «ارموا الطين!» صاح بهم بنبرة آمرة، وأطاعه زعيم المجموعة بشكل آلي، ورموا الطين في الحفرة وسرعان ما تحرك الجميع في كل الجهات بكل ما في وسعهم.

وسار العمل بهذه الوتيرة ساعة، وتجاوز الوقت السادسة، وسيحل قريباً ظلام كثيف؛ وتوقف هطل المطر، ونادى هاوكه المراقبين ليقتربوا من حصانه: «غداً في الرابعة صباحاً» سيكون الجميع في أماكنهم؛ سيكون القمر في السماء، وبعون الرب سننجز العمل! ما يزال هناك شيء! صاح لما هموا بالمغادرة: «هل تعرفون الكلب؟» وأخرج الكلب من معطفه.

أنكروا معرفته؛ هنا قال أحدهم: «دار طوال اليوم متسولاً في القرية، ليس مُلكاً لأحد!».

«إذن هو ملكي!» رد مشرف السد. «لا تنسوا غداً باكراً في الرابعة! وانطلق من المكان».

وحين وصل إلى الدار، أطلت آن غريته من الباب، كانت في ثياب نظيفة، وخطر في ذهنه، هي ذاهبة الآن إلى دير الخياط. «ضعي مئزرك!» وما إن أطاعته لا إرادياً حتى رمى إليها الجرو القذر: «خذيه إلى فينكه الصغيرة؛ سيصير رفيق لعبها! لكن نظفيه ودفئيه على الفور؛ هكذا تقومين بما يرضي الرب، فالحيوان شبه متجمد». ولم تكن آن غريته قادرة على التمرد على معلمها، وهكذا فوتت اليوم زيارة الدير.

وفي اليوم التالي تم إنجاز آخر طبقات الطين في السد الجديد؛ هدأت الريح، وحلقت القبرات والنوارس ببهاء متنقلة في الفضاء فوق الأرض والماء؛ وتناهت من جزيرة بيفرس أصوات متداخلة لآلاف من الأوز البري التي لا تزال حتى اليوم تستوطن ساحل بحر الشمال، ومن ضباب الصباح الأبيض الذي غطى الأهوار الواسعة انبثق ببهاء يوم ربيعي مذهب وسطع على العمل الجديد الذي أنجزته أيدي البشر.

بعد بضعة أسابيع جاء مندوبو الحاكم برفقة كبير مشرفي السدود ليتفقدوا العمل بأنفسهم؛ أقيمت وليمة كبرى في دارة مشرف السد، هي الأولى منذ رحيل العجوز تيدة فولكرتس، ودُعي إليها كل مراقبي السدود وكبار الملاك. وبعد المأدبة جُهزت عربات الضيوف ومشرف السد؛ وساعد كبير مشرفي السدود السيدة إيلكه في امتطاء العربة التي وقف أمامه الحصان البني وهو يضرب الأرض بحوافره؛ ثم قفز بنفسه بعدها وأمسك الرسن بيده، وأراد أن يصطحب، هو بالذات، زوجة مشرف السد الذكية، وقاد العربة باتجاه الطريق، ثم سلك الدرب المفضي إلى السد الجديد الذي يدور حول الأرض المستصلحة الجديدة. وهبت خلال ذلك ريح شمالية غربية خفيفة، وأخذت المياه تضرب الجهة الشمالية والجهة الغربية للسد الجديد؛ إنما لم يكن هناك لبس في أن انحناء جسد السد لطف الضربات؛ وانطلقت من أفواه ممثلي الحاكم عبارات تمدح مشرف السد بحيث تلاشت من ذهنه الاعتراضات التي عبر عنها المراقبون هنا وهناك.

*

ومر هذا أيضاً؛ إنما كان هناك ترضية أخرى صادفها مشرف السد ذات يوم وهو يقود مطيته بمحاذاة السد صامتاً غارقاً في تأملاته. وتبادر إلى ذهنه سؤال، لماذا تم تسمية الأرض المستصلحة الجديدة التي لم تكن لتوجد لولاه، والتي كلفته عرقاً وسهر الليالي، باسم إحدى أميرات العائلة الحاكمة «جزيرة كارولين الجديدة» إنما هكذا تجري الأمور وكان الاسم مثبتاً في كل الوثائق المتعلقة بذلك، بل إنه كان في بعض الأحيان مكتوباً بالأحرف القوطية. ولما رفع نظره رأى عاملين يحملان معدات الفلاحة، وتفصل بينهما قرابة عشرين خطوة، وسمع العامل الذي في الخلف يصيح «انتظر!» إنما الآخر الواقف على درب يفضي إلى الجزيرة رد قائلاً: «في مرة أخرى يا بينس! تأخر الوقت؛ علي تسوية الأرض!».

«أين؟»

- «هنا، في جزيرة هاوكه - هايين!»

قال ذلك بصوت عال وهو يعبر الدرب كما لو أنه أراد أن تسمع ذلك كل الأهوار القابعة في الأسفل. بدا لهاوك أنه يسمع

تكريم اسمه، انتصب على الركابين، نخز حصانه بالمهماز وحدق بنظرة ثابتة في الحقول الشاسعة الواقعة على يساره.«جزيرة هاوكه هايين! كرر ذلك بصوت منخفض؛ بدا كما لو أنه لا يمكن إطلاق اسم آخر عليها! فليفعلوا ما شاؤوا، لا يمكن تجاهل اسمه؛ و ألن يضيع قريباً اسم الأميرة في الكتابات القديمة؟»

مضى الحصان الأشهب يخب بخيلاء، أما في أذنيه فتردد رجع «جزيرة هاوكه هايين! جزيرة هاوكه هايين!» وسرعان ما تحول السد الجديد في عقله إلى أعجوبة العالم الثامنة؛ فلا يوجد مثيل له في كل مقاطعة فريزة! وترك الحصان يرقص وبدا له أنه وسط كل سكان المقاطعة وأنه يعلوهم بهامته ونظره يجوب فوقهم بصرامة وشفقة.

وتتالت ثلاث سنوات منذ إنجاز السد؛ وقد أثبتت المنشأة الجديدة قيمتها، وكانت تكاليف الصيانة منخفضة، وأزهر في الأرض المستصلحة البرسيم الأبيض، وإذا مضى المرء محاذياً جدران الحماية، فسيحمل إليه نسيم الصيف عبقاً منعشاً. لقد حل وقت توزيع الحصص التي كانت حتى الآن خيالية إلى حصص حقيقية، وسيتمكن كل أصحاب الحصص من حيازة ملكيتهم

بشكل دائم. لم يتأخر هاوكه هايين في الحصول على حصص جديدة؛ أما أولة بيترس فصار خارج الموضوع فهو لا يملك شيئاً في الأرض الجديدة. إنما لا يمكن أن تمر عملية التوزيع دون اعتراضات ومماحكات، لكن قُضي الأمر، وصار هذا اليوم أيضاً خلف مشرف السد.

ومن الآن فصاعداً عاش بطريقة منعزلة، وقام بمهامه بوصفه مزارعاً ومشرفاً على السد بعيداً عمن كانوا مقربين إليه، فارق بعض أصدقائه القدامى الحياة، ولم يكن هو من النمط القادر على كسب أصدقاء جدد. إنما ساد السلام تحت سقف داره، ولم تتسبب الطفلة الصغيرة بإزعاج، كانت قليلة الكلام، ولم تكن تطرح الكثير من الأسئلة التي يصعب الإجابة عنها كما هي عادة الأطفال النبهاء، إنما كان وجهها الصغير البسيط يحمل على الدوام تقريباً انطباعاً موحياً بالسعادة. كان لديها رفيقا لعب، وكانت مكتفية بهما، فحين تتجول على الهضبة، يقفز الجرو الذي تم إنقاذه ويدور حولها، وما أن يظهر الجرو الصغير حتى نعرف أن فينكة الصغيرة ليست بعيدة. وكان رفيق اللعب الثاني نورس أسود الرأس، وكما أن الكلب سُمي «بيرل» لُقب النورس باسم «كلاوس».

استقر كلاوس في الدار بفضل امرأة عجوز؛ إذ إن الثمانينية ترين يانس لم تعد قادرة على تدبر شؤونها بمفردها في كوخها الواقع خارج السد، لذا رأت السيدة إيلكه، أن خادمة جدها المُحتضِّرة يمكن أن تجد عندهم عشيات هادئة في غرفة احتضار، وهكذا وبشيء من العنف، تم نَقَلَهْا من قبلها هي وهاوكه إلى الدار، ووضعت في غرفة صغيرة شمالية غربية في الجناح الجديد الذي شيده مشرف السد قبل بضع سنوات قرب الدار القديمة خلال توسيع أملاكه.

كما حصل بعض الخادمات على غرف لهن بالقرب من العجوز بحيث صار من الممكن أن يقمن برعايتها خلال الليل.

كانت أغراض بيتها حولها مستندة إلى الجدران مثل صندوق صُنّع من أخشاب علب السكاكر، وفوقه صورتان ملونتان للابن المفقود، عجلة غزل لم تُستخدم من زمن طويل، وسرير له ستائر ناصعة النظافة، وقبالته كرسي غطاه فراء قط الأنغورا المحنط. إنما كان لديها حولها شيءٌ حي جلبته معها، إنه النورس كلاوس، الذي تعلق بها منذ سنوات طويلة وأطعمته بنفسها؛ وحين يحل الشتاء، كان يهاجر مع باقي النوارس جنوباً ليعود مجدداً، حين ينتشر عبق الشيح على الشاطئ.

قام المبنى في موقع أكثر انخفاضاً على الهضبة؛ ولم تكن العجوز تستطيع إجالة بصرها ليتجاوز السد ويبلغ البحر. «وضعتني هنا كما لو كنت سجينة، حضرة مشرف السد!» تذمرت ذات يوم، مع قدوم هاوكه، وأشارت بأصابعها المهزولة إلى الأهوار، التي تمتد واسعة هناك في الأسفل. «أين جزيرة ييفرس؟ هناك فوق الثيران الحمر أم الثيران السود؟»

ما الذي تريدينه من جزيرة ييفرس؟ سأل هاوكه.

«ماذا، جزيرة ييفرس!» هدرت العجوز. «لكني أريد رؤية الموقع الذي رحل منه صغيري إلى الرب!»

«إن أردت رؤية ذلك» قاطعها هاوكه فعليك الجلوس فوق شجرة الدردار، فمن هناك يمكنك رؤية البحر بأسره!.

«أجل يا مشرف السد، هذا لو كان لدي ساقاك الفتيتان!»

كان هذا هو نمط الشكر الذي عبرت عنه مدّة طويلة تجاه مساعدة أهل بيت مشرف السد لها إنما تغير الوضع دفعة واحدة. أطل رأس الصغيرة فينكه ذات صباح عبر الباب الموارب الذي يفضي إليها. «هيا» نادت العجوز، الجالسة شابكة اليدين على كرسيها الخشبي.

«هل أنت ابنة مشرف السد؟» سألت ترين يانس، وبما أن الطفلة هزت رأسها، تابعت قائلة: «تعالي امتطي ظهر مهري! كان هذا قط أنغورا، ضخم إلى هذا الحد! لكن أبوك ضربه حتى الموت. ولو أنه ما زال حياً لكنت تستطيعين امتطاءه».

نظرت فينكه بعينيها إلى الفرو الأبيض؛ ثم انحنت وبدأت بالتربيت عليه بكفيها الصغيرتين، كما يفعل الأطفال مع قطة حية أو مع كلب. «القط المسكين!» قالت وتابعت لمسه بيديها.

«إذن!» صاحت العجوز بعد وهلة؛ «هذا يكفي؛ يمكنك امتطاؤه اليوم؛ ربما لهذا السبب ضربه أبوك حتى الموت!» ثم رفعت الطفلة بيديها كلتيهما وأجلستها على القط الأبيض. لكن لما جلست صامتة دون حراك، مكتفية بالتحديق فيها، بدأت تهز رأسها: «أنت تعاقبه، أيها الرب الإله!! أجل أنت تعاقبه!» تمتمت؛ لكن انتابها شعور بالشفقة على الطفلة، فداعبت شعرها بكفيها الناحلتين، ونم بريق عيني الطفلة عن سرورها بهذا.

ومن هنا فصاعداً واظبت الصغيرة فينكه على زيارة غرفة العجوز؛ وسرعان ما صارت تمتطي بنفسها ظهر قط الأنغورا الأبيض، وكانت ترين يانس تضع في كفها الصغير لقيمات من

اللحم والخبز وتدعها ترميها على الأرض؛ وهنا كان الطائر يأتي مزقزقاً فارد الجناحين من زاوية ما وينقض عليها. في البداية أرعب الطائر الضخم الطفلة وأبكاها، لكن سرعان ما تحول هذا إلى نوع من اللعب، فما إن يطل رأسها الصغير من فتحة الباب حتى ينقض الطائر ويقبع على رأسها أو على كتفها، إلى أن تُهرع العجوز لمساعدتها، وتبدأ عملية إطعام الطائر.

أما ترين يانس التي لم تكن تتحمل أبداً أن يلمس أحد غيرها «كلاوس»، فصارت تتابع الآن بصبر كيف انجذب الطائر إلى الطفلة. كان يتركها تطارده طوعاً، ثم تحمله في مئزرها وتجول به، وحين كان الجرو البني بدور حولها على الهضبة ويقفز غيرة من الطائر، كانت تصيح: «ليس أنت! ليس أنت برل!» وترفع بكفيها الصغيرتين النورس عالياً بحيث يتمكن هذا من الانطلاق بحرية، ويحلق فوق الهضبة وعندها يتقافز الكلب حولها ساعياً لاحتلال مكان الطائر بين ذراعيها.

وحين كان نظر هاوكه أو إيلكه يقع مصادفةً على مشهد الكائنات الأربعة جمعت بينهم حاجة متماثلة، كانت نظرة حنان تشع من أعينهما باتجاه الطفلة؛ إنما حين يشيحان ببصرهما عنها

تظل مسحة حزن على وجهيهما، وهو حزن حمله كل واحد منهما في دخيلته، ولم ينبسا بكلمة حول الأمر. وذات ضحى يوم مشمس، لما كانت فينكه والعجوز برفقة الحيوانين يجلسون على الصخرة قرب باب مخزن الحبوب، مر والدا الطفلة، مشرف السد يجر حصانه الأشهب، واللجام في يده، أراد الذهاب إلى السد وجلب بنفسه الحصان من الأهوار؛ وأمسكت زوجته بذراعه وهما على الهضبة. سطعت أشعة الشمس دافئة، كان الطقس رطباً بعض الشيء، وهبت ريح من الجنوب ومن الجنوب الشرقي. بدا أن الطفلة ليست مرتاحة في مجلسها: «فينكه تريد الذهاب معكما!» صاحت، ونحت النورس عن حجرها وأمسكت بيد أبيها.

«إذن تعالي!» قال لها.

لكن السيدة إيلكه صاحت: «وسط هذا الريح؟ ستطير منك!»

«سأمسك بها جيداً؛ واليوم لدينا هواء ساخن ومياه مرحة، وهكذا يمكنها رؤية المياه ترقص».

قصدت إيلكه الدار وجلبت دثاراً وقلنسوة لطفلتها. «لكن هناك عاصفة!» قالت له: «أسرعا وعجلا بالعودة إلى هنا!»

ضحك هاوكه: «لا يُفترض بنا تصديق هذا!» وجذب الطفلة إلى السرج بقربه. بقيت السيدة إيلكه على الهضبة لوهلة، وتابعت بعينيها، اللتين ظللتهما بكفها، كليهما وهما يمضيان في طريقهما إلى السد. وقبعت ترين يانس على الصخرة تتمتم بشفتيها الذابلتين كلمات غير مفهومة.استكانت الطفلة دون حركة تحيط بها ذراع والدها؛ بدا أنها تعاني ضغط ريح العاصفة؛ مال برأسه إليها «ما الأمر يا فينكه؟» سألها.

نظرت إليه الطفلة لوهلة: «أبي» سألته: «أنت قادر على القيام بهذا! ألا تقدر على كل شيء؟»

«ما الذي يُفترض أن يكون بمقدوري القيام به، فينكه؟»

إنما التزمت الصمت؛ بدا أنها لم تفهم سؤالها.

كان وقت المد؛ حين وصلا إلى السد، ضرب انعكاس الشمس على المياه الواسعة أعينهما، رفعت زوبعة الأمواج عالياً على شكل دوامة، وجاءت موجات جديدة لتضرب الشاطئ؛ هنا أطبق كفاها الصغيرتان على قبضة أبيها، الممسكة بالرسن، من شدة رعبها فاندفع الحصان جانباً. تعلقت العينان بلونهما الأزرق الشاحب بهاوكه. «الماء يا أبي! الماء!»

لكنه ظل على هدوئه وقال: «اهدئي يا طفلتي، أنت برفقة والدك؛ والماء لن يضرك بشيء!»

نحت شعرها الأشقر عن جبينها، وتجرأت على النظر إلى البحر من جديد.

«لن يضرني بشيء» قالت مرتجفة، لا، قل له إنه لا يُفترض به أن يضرنا؛ أنت قادر على هذا؛ وهكذا لن يفعل هو شيئاً يضرنا.

«لا يتعلق هذا بقدرتي على ذلك» رد عليها هاوكه: «إنما السد الذي نجتازه، هو الذي يحمينا، وهذا ما جعل أبوك يفكر بالأمر ويبني السد».

تعلقت عيناها مجدداً به، كما لو أنها لم تفهم هذا تماماً؛ ثم دست رأسها داخل معطف والدها الفضفاض.

«لماذا تختبئين، فينكه؟»همس لها. «أما زلت خائفة؟» وصدر صوت خافت مرتعش من طيات المعطف: «تفضل فينكه ألا تنظر؛ لكن ألست قادراً على كل شيء يا أبي؟»

حملت الريح قصف الرعد من بعيد. «هو! هو! صاح هاوكه»، «ها هي قادمة!» وأدار حصانه ليتخذ طريق العودة «علينا الرجوع الآن إلى الدار وإلى ماما!»

أطلقت الطفلة تنهيدة عميقة؛ لكن لم ترفع رأسها عن صدر والدها إلا بعد أن صارا على الهضبة ووصلا إلى الدار.

ولما نحت السيدة إيلكه الدثار والقلنسوة، ظلت الطفلة واقفة قبالتها بشيء من الغباء. «ما الأمر فينكه» قالت لها بصوت منخفض وهزتها بلطف، «هل أحببتِ المياه الواسعة؟»

لكن الطفلة فتحت عينيها واسعاً وقالت: «إنها تتكلم وفينكه خائفة!»

- هي لا تتكلم، هي تهدر و تهمهم فقط!

حدقت الطفلة بعيداً: «هل لديها ساقان؟» سألت: «هل بإمكانها ارتقاء السد؟»

- لا يا فينكه، «أبوك حريص على هذا فهو مشرف السد».

- «أجل» قالت الطفلة وصفقت بكفيها الصغيرتين مع ابتسامة غبية «أبي قادر على كل شيء، على كل شيء!»

وفجأة ابتعدت عن أمها وصاحت: «دعي فينكه تمضي إلى ترين يانس، لديها تفاح أحمر!»

فتحت إيلكة الباب وتركت الطفلة تغادر. وما إن أعادت إغلاقه حتى حولت عينين باحتا بأكبر قدر من الحزن العميق باتجاه زوجها، وهي التي طالما عبرت بهما عن الثقة، وأمدتاه بالعزم والعون.

لمس يدها وضغط عليها، كما لو أنه لم يعد هناك حاجة لكلمة بينهما؛ لكنها قالت بصوت منخفض:

«لا، هاوكه، دعني أتكلم: هذه الطفلة، التي أنجبتها لك بعد سنوات، ستظل طفلة دائماً. أوه أيها الرب العطوف! إنها غبية؛ يجب علي أن أقول لك هذا».

«أعرف هذا منذ زمن» قال هاوكه: وأحكم قبضته على يد زوجته وهي تحاول سحبها.

«إذن ها نحن قد تُركنا وحيدين» قالت مستأنفة الحديث.

لكن هاوكه هز رأسه: «أنا أحبها، وهي تعانقني وتضغط برأسها بقوة على صدري؛ لا أريد خسارة هذا مقابل كل كنوز العالم!»

حدقت فيه بنظرة قاتمة: «لكن لماذا؟» قالت؛ «ما هو ذنب المسكينة؟»

- أجل إيلكه، لطالما سألته: بدوري «إنما تعلمين، كلي القدرة لا يعطي البشر إجابة، ربما لأننا لا نقدر على فهمها».

أمسك بيدها الثانية وضمها إليه بلطف: «لا تتركي نفسك للضلال، أنت تحبين ابنتك، وكوني على ثقة أنها تدرك هذا!».

هنا ارتمت إيلكه على صدر زوجها، وبكت بحرقة، ولم تعد وحدها في معاناتها. وفجأة ابتسمت له؛ ضغطت على كفيه بقوة وغادرت وجلبت طفلتها من غرفة العجوز ترين يانس ووضعتها على حجرها، وربتت عليها، وقبلتها إلى أن قالت متلعثمة: «أمي، أمي الحبيبة!»

وهكذا عاش الناس في مزرعة مشرف السد بهدوء معاً؛ ولو لم تكن الطفلة هناك، لكان هناك نقص عظيم. ومر الصيف شيئاً فشيئاً؛ حاملاً معه الطيور المهاجرة، خلا الهواء من أناشيد القبرات؛ وفقط قرب الحظائر حيث تتمكن من التقاط الحبوب وقت درس المحصول، يسمع المرء هنا وهناك بعضها تصيح وهي حائمة، وسرعان ما فرض الصقيع رداءه على كل شيء. وفي مطبخ الدار الرئيسية جلست ذات عصر العجوز ترين يانس فوق

درجة خشبية على الدرج المجاور للموقد يفضي إلى العلية. كان ذلك في الأسبوع الأخير لما بدا كما لو أنها بُعثت؛ صارت تأتي طوعاً أحياناً إلى المطبخ وتراقب السيدة إيلكه تعمل؛ ما عاد هناك حديث حول عجز ساقيها عن نقلها إلى هناك، منذ أن شدتها فينكه الصغيرة ذات يوم من مئزرها. والآن ها هي فينكه الصغيرة راكعة إلى جانبها وتنظر، بعينيها الهادئتين، إلى اللهب المتراقص في الموقد؛ كانت إحدى كفيها الصغيرتين معلقة بذراع العجوز، والأخرى مستقرة على رأسها ذي الشعر الأشقر الشاحب.

كانت ترين يانس تروي حكاية: « تعرفين» قالت: «أنا كنت في خدمة جدك الأكبر، بوصفي خادمة، ثم كان علي إطعام الخنازير؛ كان أذكى الجميع، هذا ما كان عليه، سيد نحيل وطويل، إنما ذات مساء، وكان القمر يسطع، أغلق البوابة المفضية إلى المرفأ؛ ولم يعد بإمكانها العودة إلى البحر.

أوه كيف صرخت وكيف شدت بقسوة شعرها الأشعث بكفي السمكة! أجل يا طفلتي، رأيتها بنفسي وسمعتها تصرخ! كانت الحفر بين الأهوار طافحة بالماء، سطع القمر فوقها بحيث

لمعت مثل الفضة، وسبحت من حفرة إلى أخرى انتصبت وصفقت بما يفترض أنهما كانا يديها، بحيث سُمع الصوت من بعيد، كما لو أنها أرادت أن تصلي؛ إنما يا طفلتي هذه المخلوقات لا تستطيع الصلاة. كنت جالسة أمام بوابة الدار على حزم القش التي تم جلبها لاستخدامها في البناء، وأنظر بعيداً عبر الأهوار؛ وكانت حورية البحر ما تزال تسبح في الحفر، وحين كانت ترفع ذراعيها، كانتا تتوهجان مثل الفضة والماس. وفي النهاية لم أعد أراها، والإوز البري والقبرات، التي لم أسمعها كل ذلك الوقت، استأنفت صفيرها وثرثرتها في الهواء.

صمتت العجوز؛ بدأت الطفلة بكلمة: «هل تستطيع أن تصلي؟» سألت: «ما الذي تقولينه؟ من كان هذا؟»

«طفلتي»، قالت العجوز؛ «كانت حورية البحر، هي كائنات ضخمة لا يمكن أن تشعر بالخلاص»

«لا تشعر بالخلاص!» كررت الطفلة، وأطلق الصدر الصغير تنهيدة عميقة، كما لو أنها أدركت الأمر.

- «ترين يانس!» جاء صوت عميق من فرجة الباب، فارتعشت العجوز بعض الشيء. كان مشرف السد هاوكه هاين، يعترض

على الأمر: «ما الذي تقولينه للطفلة؟ ألم أرجوك، أن تحتفظي بخرافاتك لنفسك أو أن تحكيها للإوز والديوك؟».

نظرت إليه العجوز نظرة غضب ودفعت الطفلة بعيداً عنها: «هذه ليست خرافات» تمتمت في سريرتها»، «هذا ما رواه شقيق جدي».

- «شقيق جدك يا ترين؟ أنت قلتِ إنّك عشت هذا بنفسك!».

«سيان» قالت العجوز؛ إنما أنت لا تصدقني، هاوكه هاين، تريد أن تجعل من عمي الأكبر كاذباً! ثم اقتربت من الموقد، ومررت يديها فوق اللهب في حفرة النار.

ألقى مشرف السد نظرة عبر النافذة؛ لم يكدْ يخيّمُ الظلام في الخارج. «تعالي فينكه!» قال: «وسحب طفلته محدودة الذكاء إليه؛» تعالي معي، سأريك في الخارج من فوق السد شيئاً! لكن علينا الذهاب على أقدامنا، لأن الحصان عند البيطار. بعدها ذهب معها إلى الغرفة، ولفت إيلكه دثاراً سميكاً حول عنقها وكتفيها؛ وسرعان ما ذهب الأب معها فوق السد القديم باتجاه الشمال الغربي، وتجاوزا جزيرة ييفرس، وصولاً إلى المدى الواسع.

حملها حيناً، وجرها من يدها حيناً؛ تمدد العتم بشكل تدرجي؛ وبعيداً اختفى كل شيء خلف الضباب والبخار. لكن هناك حيث يصل مدى العين، شقت تيارات الماء غير المرئية الجليد، وكما سبق لهاوكه هايين رؤيته في صباه ذات مرة، اندفع من الشقوق مثل السابق ضباب بخار الماء، وهناك كانت من جديد تلك الأشكال غير العادية تتالى ثم تنطلق فجأة في المدى المفزع.

التصقت الطفلة الفزعة بوالدها وغطت وجهها الصغير بيده: «شيطان البحر!» تمتمت مرتعدة عبر أصابعه، «شيطان البحر!»

هز رأسه: «لا، فينكه، ليس عروس البحر ولا شيطان البحر؛ لا وجود لمثل هذا؛ من أخبرك بهذا؟».

رمقته بنظرة حادة؛ لكن لم ترد. ربت بلطف على وجنتيها: «أعيدي النظر هناك!» قال: «إنها طيور مسكينة جائعة! انظري فقط، كيف يفرد جناحيه الكبيرين الآن؛ إنها تلتقط الأسماك، التي تعبر الشقوق التي تصدر الدخان».

«سمك» رددت فينكه.

أجل يا طفلة، كلها حية، مثلنا؛ «لا يوجد شيء آخر؛ إنما الرب الطيب قائم في كل مكان!»

ثبتت فينكه الصغيرة نظرها في الأرض وحبست أنفاسها؛ بدا كما لو أنها تنظر مرعوبة إلى هاوية. ربما كان هذا ما في الأمر، أطال الأب نظره إليها؛ انحنى وحدق في الوجه الصغير؛ إنما لم يكن هناك تعبير عن عاطفة في تلك الروح المنغلقة. حملها على ذراعه ودس كفيها الصغيرتين المتجمدتين برداً في إحدى جيوبه الواسعة: «هكذا يا فينكتي!» ولم تدرك الطفلة نبرة الحميمية في كلماته، «هكذا، تتدفئين بالالتصاق بي أنت حقاً طفلتنا، طفلتنا الوحيدة. نحن نحبك...!» خان الصوت الرجل؛ ودست الصغيرة رأسها الصغير في لحيته الخشنة.

وهكذا قفلا عائدين بطمأنينة إلى الدار.

بعد العام الجديد رجع القلق متسللاً إلى الدار؛ أصيب مشرف السد بحمى الأهوار؛ وبدوره اقترب من حافة القبر، وحين تعافى بفضل رعاية وعناية السيدة إيلكه، لم يكدْ يبدو أنه الرجل نفسه. انتقل إنهاك الجسد إلى روحه، ورأت إيلكه بقلق كيف كان كل الوقت قليل الرضا. ومع ذلك، قرابة نهاية آذار، جر نفسه، وامتطى حصانه الأشهب وقاده للمرة الأولى في محاذاة سده، كان ذلك في عصر أحد الأيام، والشمس، التي سطعت قبل ذلك، اندست خلف ضباب فواح.

شهد الشتاء ارتفاع المد عدة مرات؛ إنما لم يكن الأمر خطيراً؛ فقط هناك على الشاطئ الآخر غرق قطيع من الخراف وتخربت قطعة أرض؛ أما في هذا الجانب وفي الأرض المستصلحة الجديدة فلم تحدث أضرار تستحق الذكر. إنما في الليلة السابقة هبت عاصفة قوية؛ والآن يجب على مشرف السد الذهاب بنفسه إلى هناك ليرى بعينيه كل شيء. وسرعان ما ارتقى من الأسفل من الزاوية الجنوبية الشرقية إلى السد الجديد؛ وكان كل شيء على ما يرام؛ لكن حين وصل إلى الزاوية الشمالية الشرقية، هناك حيث يفضي السد الجديد إلى القديم، صحيح أن الأول لم يكن قد أصابه ضرر لكن هناك حيث كانت القناة تصل إلى السد القديم وتتدفق بمحاذاته، رأى قطعة عريضة من الأرض المعشوشبة مقتلعة وتجويفاً حفره التيار في جسم السد وشبكة من أنفاق حفرتها الفئران. ترجل هاوكه عن حصانه وعاين الأضرار عن قرب: لم يكن هناك من شك أن الأضرار التي تسببت بها الفئران تمتد بعيداً لكنها غير مرئية.

ذُهل بشدة؛ فقد راعى عند بناء السد الجديد اتخاذ إجراءات تمنع هذا؛ لأنه توقعه وقتئذٍ؛ إذن يجب القيام بشيء ما!

لم تخرج الدواب بعد إلى الأهوار، وبدا العشب متأخراً في النمو بشكل غير معتاد؛ وحيثما أجال بصره، رأى الفراغ والجدب. امتطى حصانه مجدداً وجال على الشاطئ هنا وهناك: كان وقت الجزر، وقد أدرك تماماً، كيف شق التيار القادم من الخارج سريراً جديداً، وكان يضرب الآن السد القديم من الشمال الغربي؛ في حين أنه حين يبلغ السد الجديد، فإن انسيابية جسد السد قادرة على مقاومة تأثيره.

انبثق في ذهن مشرف السد قدر هائل من الجهد الجديد ومن العمل؛ لا يقتصر الأمر على ضرورة تدعيم السد القديم في هذا المكان، بل يجب جعل انسيابية جسمه مشابهة للسد الجديد؛ وقبل كل شيء يجب إعادة حرف القناة القديمة، التي بدا من جديد أنها خطرة، من خلال سدود جديدة.

ومرة ثانية قاد حصانه إلى السد الجديد إلى الزاوية الخارجية الشمالية الغربية، ورجع أدراجه، وعيناه تتمعن دون كلل بالسرير الجديد، والذي شقته القناة الذي بدا واضحاً أمامه في الطمي. أراد الحصان الأشهب المضي قُدماً؛ لكن الفارس لجمه، أراد أن يخب ببطء، أراد ترويض الأرق الداخلي الذي تصاعد بشراسة في سريرته.

لو أن الفيضان تكرر، فيضان مثل الذي حدث في ١٦٥٥، إذ غرق ما لا يحصى من الممتلكات والبشر، لو أنه أتى، كما أتى العديد من المرات. اجتاحت قشعريرة الفارس، السد القديم، لن يصمد أمام الصدمة التي ستضربه! ماذا حينئذ، ما الذي يُفترض به أن يحدث؟

طريقة واحدة. لا يوجد إلا وسيلة واحدة يمكن أن تسمح بالمحافظة على الأرض المستصلحة والممتلكات القديمة وعلى الحياة هناك. شعر هاوكه هايين بقلبه يخمد؛ ورباطة جأشه المعتادة تتزعزع؛ لم يفصح عن ذلك؛ إنما هدر الصوت بقوة في سريرته: جزيرتك، يجب التضحية بجزيرة هاوكه هايين، سيتم فتح ثغرة في السد الجديد!.

وسرعان ما رأى في مخيلته المد المدمر يضرب المكان، ويغطي العشب والطمي بالرذاذ والرغوة المالحين. نخز الحصان الأشهب في جانبه فصهل جفلاً، وانطلق على طول السد باتجاه الدرب التي تفضي إلى هضبة مشرف السد.

وصل إلى الدار ورأسه طافح بقلق داخلي وببرامج غير منظمة. ارتمى على مقعده ذي المسندين، ولما دخلت إيلكة والابنة الغرفة؛

انتصب مجدداً وحمل الطفلة وقبلها؛ ثم أبعد الجرو البني عنه بضربات خفيفة «يجب علي الخروج مرة أخرى إلى الحانة!» قال وأخذ قبعته من المشجب المثبت في الباب حيث كان قد علقها».

نظرت إليه زوجته بقلق شديد: «ما الذي تريده هناك؟ اقترب المساء، هاوكه!».

«قصص تتعلق بالسد!» تمتم، «أود الاجتماع ببعض المراقبين هناك».

اقتربت منه وشدت على كفه، ومع هذه الكلمات انطلق عبر الباب إلى الخارج. إن هاوكه هايين الذي قرر كل الأمور بنفسه حتى الآن، مجبر الآن، على الاستماع لكلمة ممن كان يعدهم غير أهل لإبداء الرأي. وجد في صالة الزبائن أولة بيترس مع اثنين من المراقبين وأحد سكان الناحية حول طاولة لعب الورق.

«أتيت من مكان بعيد، يا مشرف السد؟» قال الأول، وأخذ الأوراق التي لم يكتمل توزيعها ثم رماها.

«أجل، أولة» رد؛ «كنت هناك ؛ بدا الوضع سيئاً».

«سيِّئ؟ لكن لن يكلف الأمر سوى بضع مئات القطع من ملاط التدعيم ثم تغطيتها بتربة صالحة لنمو العشب؛ فأنا بدوري كنت هناك بعد الظهر».

«لن ينقضي الأمر بهذه التكلفة البخسة، يا أولة» رد مشرف السد، «مجرى تدفق الماء برز من جديد، وإن لم يضرب الآن السد من جهة الشمال، فقريباً سيضربه من الشمال الغربي!».

«كان عليك تركه، كما وجدته!» قال أولة بجفاء.

«هذا يعني» رد هاوكه: «لأرض المستصلحة الجديدة لا تعجبك؛ ولهذا لا يجب أن تكون قائمة. هذه غلطتك أنت بالتحديد! إنما إن قمنا بحمايتها بأسوار فإن العشب الذي سينمو خلف السد الجديد سيغطي التكاليف».

«ما الذي تقولونه، يا مشرف السد؟» صاح المراقبون: «أسوار؟ كم هو عددها؟ أنتم تحبون إنجاز كل شيء بأبهظ التكاليف!»

استقرت أوراق اللعب على الطاولة دون أن تمسها يد. «أود أن أقول لك يا مشرف السد»، قال أولة بيترس مباعداً ذراعيه، «جزيرتك الجديدة هي عمل مدمر، فرضته أنت علينا! الكل يكدح

لتغطية التكلفة الثقيلة لسدك العريض؛ وها هي تلتهم سدنا القديم، ويُفترض بنا تجديده! لحسن الحظ الوضع ليس بهذا السوء؛ صمد هذه المرة، وسيصمد طويلاً! كل ما عليك هو امتطاء حصانك الأشهب غداً من جديد لتعاين الوضع مرة أخرى!».

جاء هاوكه إلى هنا من السلام المهيمن على داره؛ فخلف الكلمات المحسوبة التي سمعها، كان هناك، وهذا أمر لا يمكنه تجاهله، تمرد حاد؛ بدا كما لو أنه فقد عزمه القديم. «سأفعل ما قلته، يا أولة!» قال: «إنما أنا أخشى أنني سأجد الوضع، كما رأيته اليوم».

- تلا هذا اليوم ليلة مضطربة؛ تمرغ هاوكه، أرقاً؛ في وسادته. «ما الذي دهاك؟» سألته إيلكه التي أجبرها انشغالها على زوجها على البقاء يقظة؛ «إن كان هناك ما يضغط عليك، فعليك الإفصاح عنه؛ هذا ما حافظنا عليه على الدوام!»

«ليس هناك من شيء، إيلكه!» أجابها: «هناك أمور يجب إصلاحها في السد وفي البوابات؛ تعرفين أني في كل مرة أعالج هذا في داخلي ليلاً». لم يقل المزيد؛ أراد الاحتفاظ بحرية التصرف؛ ففي لحظة ضعفه هذه، بدا له جلاء رؤية زوجته وقوة نفسها بمنزلة عائق أراد تحاشيه غريزياً.

وفي ضحى اليوم التالي، حين وصل مجدداً إلى السد، كان العالم غير ذاك الذي وجده في اليوم السابق؛ كان وقت الجزر؛ إنما كان النهار يشق طريقه، ونور شمس الربيع يترك أشعته تنساب عمودية تقريباً على المدى الواسع؛ وحامت نوارس بيضاء هنا وهناك بهدوء، وهناك في الأعلى تحت السماء الزرقاء اللازوردية أنشدت القبرات لحنها الخالد.

أما هاوكه الذي لم يعرف كيف يمكن للطبيعة أن تخدعنا بسحرها، فوقف على الزاوية الشمالية الغربية للسد، وبحث عن السرير الجديد الذي شقته القناة الذي أرعبه الأمس إلى حد كبير، لكن لم يتمكن في البداية من العثور عليه تحت وطأة أشعة الشمس الساطعة في ذروتها. وحين ظلل عينيه بكفه ليحميهما من الأشعة الباهرة تمكن من اكتشافه؛ يبدو أن الظلال في عتمة مساء الأمس خدعته، لم يكدْ يمكن تمييزه، ويبدو أن ما قامت به الفئران تسبب بأضرار في السد أكثر من تلك التي تولدت عن المد. من المؤكد أنه يجب تغيير الأمور، إنما من خلال عملية تغطية متأنية، وكما قال أولة بيترس، باستخدام ملاط تدعيم جديد وبعض القضبان وغطاء من القش يمكن معالجة الضرر.

«لم يكن الأمر بهذا القدر من السوء» قال لنفسه بارتياح، «كنت أحمق أمس!»

أُخبر المراقبين، وقُرِّرَ العمل دون معارضة، وهو أمر لم يحدث قطُّ حتى الآن. شعر مشرف السد براحة قوية تخللت جسده الذي كان ما يزال متعباً، وبعد أسابيع تم إنجاز كل شيء بطريقة جيدة.

مضى العام قدماً، ومع تقدم السنة كانت رقع الأعشاب التي غُرست حديثاً تخضر على التربة المدكوكة التي تغطي السد، وكذلك تكرر مجيء هاوكه راجلاً أو على ظهر حصانه ليتفقد الموقع. وكان يجيل بصره، قاد حصانه في الدرب الصعبة على الجانب الداخلي للسد. وفي بعض الأحيان، حين كان عليه المرور بالموقع كان يعيد حصانه الذي لم يكد يضع عليه السرج إلى الإسطبل. ومن جديد حين لا يكون لديه عمل هناك كان يقصد المكان فجأة على قدميه، تاركاً هضبته بهدوء دون أن يراه أحد. كان يعود أحياناً إلى هناك دون امتلاك القدرة على معاينة الموقع المخيف من جديد؛ وفي النهاية شعر أنه يخرب كل شيء بيديه، وقع هذا الجزء من السد أمام عينيه كما لو كان شيء يثقل ضميره. ولكن، لم تعد

يداً قادرة على لمس شيء هناك، ولم يجرؤ على إخبار أحد بالأمر بما في ذلك زوجته.

وهكذا حل شهر أيلول؛ هبت في الليل عاصفة معتدلة، وانحرفت أخيراً باتجاه الشمال الغربي. وفي ضحى اليوم التالي الغائم، قاد هاوكه حصانه إلى السد وقت الجزر، وتفقده، وحين ترك عينيه تحدقان عبر السهل إلى هناك نحو الشمال الغربي، وفجأة رأى من جديد شبح السرير النهري الجديد الذي شقته القناة وقد بدا أكثر وضوحاً وأعمق، وبغض النظر عن إنهاك عينيه إنما لم يستطع تحويلهما عنه.

وحين وصل الدار، أخذت إيلكه يده: «ما الذي جرى لك هاوكه؟» قالت: حين رأت وجهه المظلم «لا يتعلق الأمر بكارثة جديدة؟ نحن سعداء للغاية، ويبدو لي أنك على سلام معهم كلهم!»

في مواجهة تلك الكلمات لم يشعر أنه قادر على صوغ خوفه الغامض في كلمات.

«لا، إيلكه» قال: «لا أحد يعاديني، لكن الأمر يتعلق بمسؤولية المهام، وحماية الجماعة من بحر سيدنا الرب».

انسحب، ليتحاشى المزيد من أسئلة زوجته الحبيبة. ذهب إلى الإسطبل وتجول كما لو أن عليه تفقد كل شيء؛ لكنه لم يشاهد شيئاً حوله؛ كل ما في الأمر أنه كان حريصاً على تهدئة ضميره، من خلال إقناع نفسه بالتغلب على خوفه المبالغ به.

*

«إن العام الذي أحكي لك عنه»، قال مضيفي الودود مدير المدرسة، «كان سنة ١٧٥٦»، وهو عام لن يُنسى في هذه الأرجاء؛ حل الموت في دار هاوكه هايين. فمع نهاية أيلول، كانت ترين بينس التي قاربت التسعين تُحتضر في الغرفة التي نقلت إليها في الحظيرة . وبناء على رغبتها تم ترتيب وسائدها لتتمكن من النظر بعينيها بعيداً عبر النافذة الصغيرة، وكان يبدو أن هناك في الغلاف الجوي طبقة ثخينة اعتلت الهواء مولدة سراباً، وكان انعكاس مياه البحر في تلك اللحظة مثل شريط فضي لامع على حواف السد؛ كما أن الحد الجنوبي لجزيرة بيفرساند كان مرئياً.

كانت الصغيرة فينكه تتذمر عند قدمي السرير، وهي متعلقة بقوة بيد أبيها الواقف إلى جوارها. وكان الموت يتسلل إلى وجه

المُحتضرة، وحدقت الطفلة حابسة أنفاسها في التغيرات الغريبة التي طرأت على السُحنة غير الجميلة إنما الموثوقة.

«ما الذي تفعله؟ ما هذا يا أبي؟» همست والرعب يملأ نفسها وغرست أظافر أصابعها في يد والدها.

«إنها تموت!» قال مشرف السد.

«تموت!» كررت الطفلة وبدا أنها في حالة رزانة مرتبكة.

لكن العجوز حركت شفتيها من جديد: يينس! يينس! صرخت كما لو أنها تستعيث، ومدت يديها الناحلتين باتجاه انعكاس البحر البراق: «ساعدوني! ساعادوني! أنت هنا تحت الماء... ليرحم الرب الآخرين!»

سقط ذراعاها، وسُمعت ضربة خفيفة على السرير، وفارقت الحياة.

أطلقت الطفلة زفيراً عميقاً، ووجهت عينيها الشاحبتين باتجاه والدها: «أما زالت تموت؟» سألته.

«انتهت من ذلك!» قال مشرف السد وحمل الطفلة بين ذراعيه «هي الآن بعيدة عنا، عند الرب الطيب».

«عند الرب الطيب!» رددت الطفلة وصمتت لوهلة، كما لو أنها تستوعب الكلمات. «هل من الجيد أن تكون عند الرب الطيب؟»

«أجل، هذا أفضل شيء». إنما ترددت في سريرته آخر ما قالته المُحتَضَرة. «ليرحم الرب الآخرين!» «قال بصوت منخفض في سريرته». ما الذي قصدته العرافة العجوز؟ هل يقدر المُحتَضَرون على التنبؤ؟

وبعد فترة قصيرة من دفن ترين يانس هناك في الأعلى قرب الكنيسة، انتشرت كل أنواع الأقاويل عن معاصي الأمر الذي أرعب الناس في شمال فريزلاند، وكان هذا مؤكداً، ففي منتصف يوم الأحد الثالث قبل الفصح أطاحت زوبعة بالديك الذهبي من قمة البرج؛ كما كان صحيحاً حقاً أنه في عز الصيف ظهرت في السماء غيمة من الحشرات جعلت من الصعب على المرء فتح عينيه، ثم سقطت على الأهوار وغطتها بارتفاع الكف كما لو كانت ثلجاً، ولم يكن أحد قد رأى مثل هذا من قبل. وحين قصد كبير العمال بعد نهاية أيلول مصطحباً الحبوب وبرفقته الخادمة آن غريت ومعها الزبدة، وحين عودتهما ترجلا شاحبي الوجه من العربة. «ما الأمر؟

ما الذي دهاكما؟» صاح باقي الخدم الذين هُرعوا إلى الخارج لدى سماعهم صرير عجلات عربتهما.

دخلت آن غريتيه بثياب الخروج، حابسة أنفاسها، إلى المطبخ الفسيح . «هيا، احك لنا!» صاحت الخادمات من جديد، «أين حلت المصيبة؟»

«آخ، عسى أن يحمينا يسوعنا الطيب!» صاحت آن غريتيه. «أنتن تعرفن، العجوز ماريكين التي من ساحة الآجر هناك بعد أن تتجاوز المياه، كانتا واقفتين مع الزبدة هناك عند زاوية دكان العقاقير وهي التي روت لي، وهذا ما قاله إبفن يونز أيضاً، «ثمة مصيبة قادمة!» قال: «مصيبة ستضرب كل فريزلاند الشمالية؛ صدقيني، آن غريتيه». وكتمت صوتها، ربما كان هناك شيء غير سليم يتعلق بحصان مشرف السد الأشهب».

«صه، صه» قالت باقي الخادمات.

«أجل، أجل؛ لماذا أُشغل نفسي بهذا! إنما هناك، في الجانب الآخر يبدو الوضع أسوأ مما هو قائم لدينا! لم يقتصر الأمر على الذباب والدود، بل إن الدماء نزلت من السماء مثل المطر؛ وفي

صباح الأحد التالي ذهب القس إلى الحوض الذي يغتسل فيه، فوجد هناك خمسة رؤوس لموتى كل رأس بحجم حبة بازلاء، وأتى الجميع لرؤيتها؛ وفي شهر آب غزت الأرض يرقات ديدان مخيفة حمراوات الرأس والتهمت الحبوب، والطحين، والخبز وكل ما عثرت عليه، وعجزت النار عن القضاء عليها**!»**.

صمتت الراوية فجأة؛ فما من واحدة من الخادمات انتبهت أن سيدة الدار دخلت المطبخ.

«ما الذي تتحدثن عنه هنا؟**»** قالت**: «**لا تدعن معلمكم يسمع هذا**!»** والآن أراد الجميع التحدث**: «**لا ضرورة لهذا؛ سمعت ما يكفي من هذا؛ اذهبن إلى أعمالكن، هذا سيجلب لكُنَّ نَعِماً أفضل**!»** بعدها أخذت آن غريتيه إلى الغرفة لإجراء حسابات السوق.

وهكذا لم تلق هذه التطيرات صدىً لدى سيد وسيدة الدار، وكلما أصبحت الليالي أطول كلما سهل تسلل تلك التنبؤات التي خيمت مثل هواء ثقيل على الجميع، وكان الناس يتناقلون في السر أن مصيبة، مصيبة ثقيلة ستحل بشمال فريزلاند.

*

كان ذلك قبل عيد جميع القديسين في تشرين الأول. فطوال اليوم هبت عاصفة قوية جنوبية غربية؛ وفي المساء استقر هلال في السماء، وتتالت غيوم بنية داكنة، وتتابعت الظلال متداخلة مع ضياء خافت على الأرض؛ كانت العاصفة تشتد. في غرفة مشرف السد كانت مائدة العشاء التي تم رفع ما عليها ما تزال قائمة؛ فقد تم إرسال الخدم إلى الإسطبل، ليعتنوا بالدواب هناك؛ أما الخادمات فكان عليهن التأكد من إحكام إغلاق الأبواب والفتحات، بحيث لا تنفذ العاصفة إلى الداخل وتعيث فساداً.

وفي الداخل وقف هاوكه إلى جانب زوجته قرب النافذة بعد أن التهم عشاءَه، كان هناك في الخارج عند السد. ذهب إلى هناك راجلاً، كان ذلك في وقت مبكر من بعد الظهر، حدد الأماكن التي يجب تدعيمها بأكياس الطمي أو التربة في المواقع التي بدا أنها ضعيفة؛ وزع الناس في كل مكان بحيث يضعون الأكياس في الأماكن التي يبدأ المد بتخريبها في جسم السد؛ وجمع معظم الرجال عند الزاوية الشمالية الغربية حيث يلتقي السد القديم بالسد الجديد، ولم يكن يُسمح لهم بمغادرة أماكنهم إلا في حالات

الطوارئ. وأصدر أوامره قُبيل ربع ساعة حين عاد، مبللاً، ومشوشاً إلى داره، والآن وسمعه مركز على هبات الريح التي جعلت تدعيمات النوافذ المصنوعة من الصفيح تتحشرج، نظر ساهماً في الليل الداهم في الخارج؛ وقرعت الساعة الجدارية خلف واجهتها الزجاجية معلنة الساعة الثامنة. أما الطفلة الواقفة جانب أمها، فذُهلت ودست رأسها في ثوب أمها.

«كلاوس!» صاحت باكية: «أين كلاوسي».

كانت محقة في السؤال لأن النورس، كحاله في العام السابق، لم يقم برحلته الشتائية. تجاهل الأب السؤال؛ أما الأم فرفعت الطفلة بذراعيها: «كلاوسك في الحظيرة»، قالت «يجلس هناك في الدفء».

«لماذا؟» قالت فينكه: «هل هذا جيد؟».

«أجل إنه جيد».

ما زال سيد الدار واقفاً قبالة النافذة: «لن يطول الأمر، إيلكه!» قال: «نادي واحدة من الخادمات؛ ستتسلل العاصفة عبر النوافذ، يجب تثبيت الردفات الخشبية!»

واستجابة لسيدة الدار انطلقت الخادمة خارجاً؛ وشوهدت من الغرفة وثوبها يتطاير، لكن حينما خففت إحكام قبضتها على

الخطافات، انتزعت الريح حمولتها من يدها وضربت بها النافذة، بحيث تحطمت بعض الألواح وطارت إلى داخل الغرفة، وأطفأت قنديلاً نفث دخانه. كان على هاوكه الخروج بنفسه لمساعدتها، وتمكنا بصعوبة من تثبيت الألواح الخشبية أمام النوافذ.

وحين فتحا الباب ليدخلا، هبت ريح قوية جعلت الأواني الزجاجية والفضية ترتج داخل الخزانة؛ وارتعدت دعامات السقف فوق رؤوسهم كأن العاصفة أرادت انتزاع السقف عن الجدران.

لكن هاوكه لم يرجع إلى الغرفة؛ سمعت إيلكه، كيف عبر البيدر باتجاه الإسطبل. الحصان الأشهب! الحصان الأشهب، جون! بسرعة!. «هكذا سمعته يصيح، ثم عاد إلى الغرفة، وشعره منكوش، إنما العينان الرماديتان تلمعان. صاح «الرياح غيرت اتجاهها!» باتجاه الشمال الغربي، في وسط فيضان الربيع! لم تكن رياحاً؛ نحن لم نشهد مثل هذه العاصفة من قبل!»

اكتسى إيلكه شحوب الموتى: «هل عليك الخروج مرة أخرى؟»

أخذ كفيها وضغط عليهما بشدة: «يجب علي هذا، إيلكه».

رفعت ببطء عينيها الداكنتين إليه، وتبادلا نظرة بضع ثوان؛ إنما بدا كما لو أن الأمر استغرق الدهر. «أجل هاوكه» قالت الزوجة: «أعرف هذا تماماً؛ يجب عليك!»

ثمة صوت هرولة أمام باب الدار. طوقت عنقه بيديها، وبدا لوهلة أنها عاجزة عن تركه، لكن كان ذلك فقط مدة طرفة عين. «هذا هو صراعنا!» قال هاوكه: «أنتما هنا بأمن؛ لا يمكن لأي فيضان الوصول إلى هذه الدار وتضرعي للرب لكي يكون معي!»

تدثر هاوكه بمعطفه، وأخذت إيلكه وشاحاً غطت به عنقه بعناية؛ أرادت النطق بكلمة، لكن شفتَيْها المطبقتين خانتاها.

صهل الحصان الأشهب في الخارج، وبدا صهيله مثل صوت بوق اخترق عويل العاصفة. خرجت إيلكة مع زوجها؛ وأصدرت شجرة الدردار العتيقة صريراً كما لو أنها ستتكسر.

«امتط الحصان، سيدي!» صاح الخادم: «الحصان الأشهب قد جُن، ربما آلمه الرسن». ضم هاوكه زوجته بذراعه: «سأكون هنا عند شروق الشمس؟»

وسرعان ما قفز إلى صهوة حصانه؛ كان مثل فحل يستعد للعراك، وانطلق مع فارسه نازلاً الهضبة وسط الليل وعويل العاصفة.«بابا، أبي!» علا صوت طفلة ينفطر له القلب خلفه؛ «أبي الحبيب!»

كانت فينكه قد تسللت في الظلام خلف الحصان المنطلق؛ لكن سرعان ما تعثرت بكوم تراب وسسقطت أرضاً.

حمل الخادم إيفين يونز الطفلة الباكية وأرجعها إلى أمها؛ التي كانت مستندة إلى جذع شجرة الدردار التي تمايلت أغصانها فوقها تحت لسعات الريح، تحدق ساهمة في الليل، إذ اختفى زوجها؛ ولما سكن لطرفة عين، قصف العاصفة وصوت تلاطم المياه بعيداً، فارتعشت كما لو كانت خائفة؛ بدا لها أن كل شيء يسعى لتدميره، وأن كل شيء سينتهي ما إن يتمكن من الإمساك به.

ارتجفت ركبتاها، بعثرت العاصفة شعرها مكملة بذلك لعبتها. «ها هي الطفلة سيدتي!» صاح جون مخاطباً إياها؛ «أمسكيها بقوة!» ووضع الطفلة بين ذراعي أمها.

«الطفلة؟» لقد نسيتك يا فينكه! «ليسامحني الرب». ثم ضمتها إلى صدرها، بقوة لا يقدر عليها سوى الحب؛ وخرت راكعة على

ركبتيها: «أيها الرب، ويا يسوعي، لا تتركانا لنصبح يتيمة وأرملة! أوه يا إلهي الطيب؛ أنا وأنت فقط نعرفه».

أما العاصفة فلم تعرف الراحة؛ قصفت وأرعدت، كما لو أنها تريد ابتلاع العالم بأسره في صخبها.

«اذهبا إلى الدار، سيدتي!» قال جون: «هيا!» وساعدهما على النهوض وقادهما إلى الدار ثم إلى غرفة المعيشة.

انطلق مشرف السد هاوكه هايين إلى السد ممتطياً جواده. كان الدرب الضيق قد تعرض للحت، ففي الأيام السابقة هطلت أمطار غزيرة؛ لكن بدا أن الطين المبلل غير قادر على كبح حوافر الجواد، الذي بدا كما لو أن تحت حوافره تربة صلّبتها شمس الصيف.

اندفعت الغيوم كما لو أنها تخوض مطاردة برية؛ وهناك في الأسفل قبعت الأهوار الواسعة مثل صحراء لا يمكن التعرف عليها مليئة بظلال مضطربة؛ وتصاعد من المياه الهائلة خلف السد هدير؛ كما لو أنها أرادت التهام كل ما عداها. «إلى الأمام أيها الأشهب!» صاح هاوكه: «نحن في أسوأ رحلاتنا!» وصدر من وطء حوافر المطية ما يشبه صرخة الموت. شد الرسن؛ وأجال البصر حوله؛ هناك بالقرب منه رأى سرب من النوارس

البيضاء تطير وهي تكاد تلتصق بالأرض، وتدفعها العاصفة وهي تصدر زقزقة لطيفة؛ أرادت الاحتماء بالأرض. تسلل القمر من بين الغيوم، سقط أحدها مسحوقاً على الأرض، بدا للفارس حين رفرف بجناحه وجود رباط أحمر حول رقبته. «كلاوس!» صاح. «المسكين كلاوس!».

هل كان ذاك طائر ابنته؟ هل تعرف على الحصان وعلى الفارس وأراد الاحتماء بهما؟ لم يجزم الفارس الرأي. «إلى الأمام!» صاح من جديد، وسرعان ما انطلقت حوافر الحصان في عدو جديد؛ هنا ركنت العاصفة فجأة؛ وحل محلها صمت الموت؛ كان ذلك لثانية واحدة، وعادت بموجة غضب جديدة؛ لكن خلال ذلك بلغ أذني الفارس صوت بشري وعواء كلب ضائع، ولما اتجه برأسه إلى قريته، تعرف في ضوء القمر المشع على مجموعة من البشر على الهضبة وأمام البيوت، يحيطون بعربات محملة فوق قدرتها على الاستيعاب كانت قافلة من العربات تتجه إلى الأراضي الأعلى؛ وصل إلى أذنيه خوار بقرات تم إخراجها من إسطبلاتها الدافئة وسوقها إلى هناك. «شكراً للرب! إنهم يحاولون النجاة بأنفسهم وبمواشيهم!» هذا ما تردد في خلده؛ ثم أطلق صرخة رعب: «زوجتي! طفلتي! لا، لا؛ المياه لا يمكن أن تصعد إلى هضبتنا!»

إنما لم يستمر ذلك سوى طرفة عين؛ وتتالت الأمور في داخله مثل رؤية. هدر البحر بدوي رهيب، شق الفارس والجواد طريقهما باتجاه البحر عبر الدرب الضيق المفضي إلى السد. وحين صارا في الأعلى كبح هاوكه حصانه بعنف. إنما أين البحر؟ أين جزيرة بيفرس؟ أين صار المرسى هناك في الأسفل؟

لم ير حوله سوى جبال من المياه تشرئب باتجاه السماء المعتمة، وتتالى في الظلام المخيف لتضرب اليابسة. أتت متوجة بالأبيض، هدرت كما لو أنها خزنت داخلها كل صيحات ضواري البرية. ضرب الأشهب الأرض بحافره الأمامي، وخاطب الصخب البعيد بخياشيمه؛ بدا للخيّال أن سلطة الإنسان وصلت إلى نهايتها؛ كما لو أن الليل، والموت والعدم ستكتسح المكان.

اقتنع أنها عاصفة؛ إنما هو بالتحديد لم يسبق له رؤية مثيلٍ لها؛ زوجته وطفلته، جالستان في مأمن هناك على الهضبة العالية، في الدار المتينة؛ أما سده، وعبرت صدره موجة افتخار، سد هاوكه هايين، كما يسميه الناس، فسيثبت، كيف يُفترض بالمرء تشييد السدود.

لكن، ما كان هذا؟، وانطلق إلى زاوية التقاء السدين؛ أين كان الناس الذي وضعهم هنا، الذين كان عليهم السهر للمراقبة؟ نظر

إلى الشمال متجاوزاً السد القديم، فهو قد أمر البعض بالبقاء هناك. لم تقع عينه على بشر واحد هنا أو هناك؛ قاد الحصان مسافة؛ إنما ظل وحيداً؛ لم تسمع أذناه سوى هبوب العاصفة وهدير البحر يمتدان إلى أقصى بعد بلا حدود. أدار الحصان ليعود أدراجه: ووصل ثانية إلى الزاوية المتروكة، وأطلق بصره على امتداد خط السد الجديد؛ وبدا له واضحاً أن الأمواج تتلاحق بعنف أقل؛ بدا كما لو كانت مياه مختلفة. «سيصمد، تمتم وعبرت دخيلته ما يشبه ضحكة!»

لكن ضحكته تلاشت حين عاد بصره ليتابع خط سده: عند الزاوية الشمالية الغربية، ما الذي يجري هناك؟ كومة داكنة غير واضحة ومتداخلة؛ رأى كيف احتشدوا وأنهم مشغولون؛ ما من شك كانوا بشراً! ما الذي أرادوه، ما الذي يفعلونه بسده الآن؟ وسرعان ما لكز المهماز جسم الحصان الأشهب؛ وانطلق الحيوان حاملاً إياه إلى هناك؛ جاءت العاصفة من الجانب الفسيح؛ وهبت الرياح بعنف شديد بحيث عبرت السد لتضرب الأرض المستصلحة الجديدة بسرعة؛ لكن الحصان والفارس عرفا تماماً أين يمضيان. وسرعان ما تبين هاوكه بضع عشرات من الرجال يعملون بحماس معاً، وسرعان ما رأى بوضوح أنه قد تم حفر

مزراب في جسم السد الجديد. أوقف حصانه بعنف: «توقفوا!» صاح: «توقفوا ما الذي تفعلونه هنا من هراء شيطاني؟» فوجئوا وأرخوا معاولهم حين انتبهوا لوجود مشرف السد بينهم.

حملت العاصفة كلماته إليهم، وبدا واضحاً، أن العديد منهم يجهدون للرد؛ لكنه لم ير إلا إيماءاتهم المنفعلة، فقد كانوا إلى يساره، وكانت العاصفة تبدد ما نطقوا به، دفعت الرياح الرجال إلى التجمع وهم يتمايلون، بحيث اقترب بعضهم مِن بعضٍ حتى تلاصقوا.

قاس هاوكه بعينه القناة المحفورة، ووضع المياه المتلاطمة التي وصلت إلى سطح السد تقريباً على الرغم من خط تصميمه وبللت الحصان وفارسه. تبين له بوضوح أن الأمر كان سيستغرق عشر دقائق من العمل، وكان المد العالي سيتدفق عبر القناة بحيث تغرق جزيرة هاوكه هايين تحت البحر!

لوح مشرف السد إلى عامل في الجهة المقابلة لحصانه. «هيا تكلم!» صاح فيه، ما الذي تقومون به هنا، ما الذي يُفترض أن يعنيه هذا؟

وصاح الرجل بدوره: «كان علينا حفر السد الجديد حتى نمنع انهيار السد القديم!»

«ما الذي كنتم تفعلونه؟»

«حفر السد الجديد!»

- «وترك المياه تتسرب إلى الجزيرة؟ أي شيطان أوحى لكم بهذا؟»

«لا، لم يكن الشيطان يا سيدي؛ إنه المراقب أولة بيترس، كان هنا، وهو أمر بذلك!»

نطقت عينا الفارس بالغضب:

«أنتم تعرفونني؟ حيث أكون لا يحق لأوله بيترس إصدار أوامر! هيا أخلوا المكان! إلى المواقع التي حددتها لكم!»

أبدوا تردداً، فانقض بحصانه وسطهم، «هيا امضوا إلى جداتكم أو إلى جدة الشيطان!»

«احذر سيدي!» صاح واحد من الرجال المتجمعين ووجه مجرفته باتجاه الحصان الجامح؛ لكن ضربة من الحافر أطاحت بالمجرفة من يده؛ وسقط رجلٌ آخر أرضاً. هنا صدرت صرخة من كومة الرجال، صرخة لا يمكن أن يولدها من حنجرة بشرية سوى رعب قاتل؛ وفي طرفة عين بدا أن الجميع بما في ذلك مشرف السد وحصانه قد أصيب بالشلل؛ فقط واحد من العمال

مد يده كما لو أنه يشير إلى الطريق؛ أشار إلى الزاوية الشمالية الغربية للسدين، هناك حيث يلتقي السد الجديد بالقديم. لم يكن بالإمكان سماع سوى هدير العاصفة وصخب المياه. أدار هاوكه نفسه وهو على السرج: ما الذي حدث هناك؟ اتسعت عيناه: «أيها الرب السيد! صدع! صدع في السد القديم!»

«إنه خَطَؤُك يا مشرف السد» صاح صوت من وسط المتجمعين، «إنها خطيئتك التي سترافقك أمام عرش الرب!»

تحولت سحنة هاوكه المحمرة غضباً إلى شحوب الموتى؛ لم يكن ضوء القمر قادراً على جعلها أكثر شحوباً؛ خمدت يداه، لم يعد يدرك أنه يمسك باللجام. لكن هذا بدوره لم يكن سوى طرفة عين؛ صدر عن فمه أنين؛ بعدها قاد حصانه بحزم، وانطلق الحصان الأشهب على السد باتجاه الشرق. حدقت عينا الفارس في كل الاتجاهات؛ ودارت في ذهنه فكرة: ما هي الخطيئة التي سيحملها أمام عرش الرب؟ ربما كانوا تمكنوا من حفر السد الجديد لو لم يوقفهم؛ إنما كان هناك أمر آخر جثم على قلبه، عرف هذا تماماً الصيف الماضي، لو لم تردعه وقتها كلمات أولة بيترس الخبيثة! هو وحده عرف ضعف السد القديم؛ وكان عليه تنفيذ

إصلاحات جديدة، «سيدي الرب، أعترف بهذا» صاح فجأة عالياً وسط العاصفة: «لقد أسأت القيام بعملي!»

إلى يساره، قريباً من حوافر حصانه هاج البحر؛ وأمامه قبعت، وسط الظلام الدامس، الأرض المستصلحة القديمة بتلتها ودورها القديمة؛ اختفى ضوء السماء الشاحب؛ ومن موقع واحد لمع ضوء يخترق الظلام. بدا أنه يواسي قلب الرجل؛ يُفترض أنه يشع من داره، كان بمنزلة تحية له من الزوجة والطفلة. بفضل الله هما جالستان في أمان على التلة العالية! من المؤكد أن الآخرين هجروا القرية، وصعدوا إلى الأرض المرتفعة؛ إذ شعت أنوار عديدة لم ير مثلها قطُّ؛ ثمة نور عال منتشر في الهواء، من المرجح أنه صادر عن برج الكنيسة. «يفترض أنهم نجوا جميعاً» قال هاوكه لنفسه: «من المؤكد أن هناك كثيراً من البيوت التي دُمرت على التلال، سيكون أمام الأهوار التي غرقت عامٌ سيِّئٌ، يجب إصلاح البوابات والأقفال! يجب أن نتحمل ذلك، وأنا أريد المساعدة، وحتى مساعدة أولئك الذين أساؤوا إلي؛ فقط يا إلهي كن رحيماً بنا نحن البشر!»

هنا نقل عينين باتجاه الأرض المستصلحة الجديدة؛ أزبدت المياه حوله؛ إنما خيم في نفسه ما يشبه سلاماً ليلياً. وانطلق من صدر الفارس صيحة لا إرادية: «صمد سد هاوكه هايين؛ وهو سيصمد مئة عام أخرى!». أيقظه الهدير عند قدميه من أحلامه؛ حرن الحصان الأشهب. ما كان هذا؟ قفز الحصان القهقرى، وأحس بأن قطعة من السد سقطت في الهاوية أمامه. حدق بعينيه وحفز كل حواسه، توقف عند السد القديم، كان الحصان الأشهب قد وضع حافريه الأماميين على السد. لجمه بشكل غريزي؛ عندها انكشف آخر قطعة من رداء الغيوم التي حجبت القمر، وانسكب النور الشاحب على كل الرعب، وكانت المياه الرغوية المتلاطمة تتدفق إلى الأرض المستصلحة القديمة.

وقف هاوكه كمن فقد أحاسيسه؛ كان فيضاناً هائلاً قادراً على ابتلاع البشر والحيوانات.

ومن جديد ومض النور أمام عينيه، كان النور الذي طمأن قلبه قبل ذلك، كان يشع باستمرار هناك على هضبته؛ ولما نظر متعباً إلى الأرض المستصلحة، تبين له بوضوح، أنه خلف الدوامة المشتتة للحواس التي تمور أمامه، لم تكتسح مياه الفيضان سوى مساحة

عرضها قرابة مئة خطوة، وكان بإمكانه بوضوح رؤية الطريق المفضي إلى الأرض المستصلحة وراءها. رأى المزيد: عربة مسافرين، لا عربة بعجلتين متجهة إلى السد؛ امرأة وكذلك طفل فيها. والآن ألم يكن هذا أنين عواء كلب صغير؟ أيها الرب كلي القدرةَ زوجته، طفلته، وهما يقتربان مباشرة، وكانت كتلة المياه الرغوية تندفع نحوهما. صيحة، انطلقت صرخة يائسة من صدر الفارس: «إيلكه!» صاح: «إيلكه! ارجعي! ارجعي!»

إنما العاصفة والبحر لم يكونا رحيمين؛ طغى هديرهما على كلماته، انتزعت العاصفة معطفه، وكادت تطيح به من على صهوة الجواد؛ وتابعت العربة مندفعة دون توقف مسرعة باتجاه الفيضان المدمر. هنا رأى كما لو أن زوجته تشير إليه بذراعها: هل عرفته: هل دفعها الحنين، وخوفها حتى الموت عليه إلى مغادرة الدار الآمنة؟ وها هي الآن تناديه بآخر كلمة؟ تدافعت الأسئلة في عقله؛ وظلت بلا جواب: ضاعت كل الكلمات منها إليه ومنه إليها؛ لم يملأ أذنيهما سوى هدير كما لو أنها نهاية العالم ابتلع كل صراخ آخر.

«طفلتي! أوه إيلكه، أوه إيلكه المخلصة!» صاح هاوكه وسط العاصفة. وهنا سقطت قطعة أخرى ضخمة من السد في المياه، وتلقفها البحر بهدير؛ وشاهد للمرة الأخيرة رأس الحصان وعجلتي العربة وسط المياه الهائجة لتغيب بعده في الأعماق. كفت عينا الفارس الذي ظل وحيداً على السد عن رؤية أي شيء. «النهاية!» قال لنفسه بصوت منخفض؛ ثم قاد الحصان إلى حافة الهاوية، هناك حيث المياه تحته صاخبة بشكل غير عادي؛ بدأت تغمر قريته؛ وشاهد من جديد ضوء داره يشع؛ وبدا له كما لو كان بلا روح؛ انتصب على الركابين ونخز الحصان بمهمازيه؛ توثب الحيوان، وكاد يطيح به، لولا قوة الرجل التي تمكنت من كبح جماحه. «هيا إلى الأمام!» صاح مرة أخرى، كما اعتاد حين يكون أمام درب وعرةً. أيها الرب سيدي؛ خذني لكن ارحم الآخرين!»

ونخزة أخرى من المهماز؛ صهيل الحصان الأشهب، قصف العاصفة وهدير الأمواج؛ ثم هناك في الأسفل أنين مملّ، وصراع سريع.

بدا القمر مشعاً من الأعالي؛ لكن في الأسفل على السد لم يكن من حياة إلا المياه الضارية، التي سرعان ما اجتاحت كل الأرض المستصلحة القديمة. لكن ظلت هضبة هاوكه هايين تلوح في الأفق،

وظل الضوء يشع، وهناك في الأهوار، حيث أظلمت كل البيوت، ظل نور برج الكنيسة الوحيد ينشر نوره على الأمواج المزبدة.

صمت الراوي؛ أمسكت بكأسي الملأى، التي كانت أمامي منذ مدّة؛ لكني لم أرفعها إلى فمي؛ ظلت يدي مرتاحة على الطاولة.

«هذه هي حكاية هاوكه هايين»؛ استأنف مضيفي الحديث، بأفضل ما يمكنني روايته وفق معلوماتي. من المؤكد أن مدبرة منزل مشرف السد كانت سترويها لك بشكل مختلف؛ وهذا مرتبط بمعرفة المرء بأسلوب السرد: كما أن هيكل الحصان العظمي الأبيض عاد بعد الفيضان، إلى سابق عهده، ليُرى في ضوء القمر على جزيرة بيفرس؛ يبدو أن كل القرية شاهدته.

الأمر المؤكد هو أن هاوكه هايين مع زوجته وابنته غرقوا في هذا الفيضان؛ لم أتمكن قطُّ من العثور على شواهد قبورهم هناك في الأعلى في ساحة الكنيسة؛ سحبت المياه مع انحسارها أجداث الموتى عبر الصدع إلى البحر، وتحللت مكوناتها، وهكذا ارتاحوا من البشر. لكن سد هاوكه هايين ما يزال قائماً بعد مئة عام؛ وإذا ركبت حصانك غداً قاصداً المدينة ولم تمانع في حرف طريقك ليطول نصف ساعة فإن حوافر جوادك ستقرع السد.

كما رأيتم لم يحظ باني السد بشكر الجيل الجديد الذي وعده به ذات مرة ييفة مانيرس؛ هذا هو الحال يا سيدي، أعطوا سقراط سماً ليشربه، وعلقوا سيدنا يسوع على الصليب!

لم تصبح الأمور أسهل في أيامنا، إذ يتم تحويل كاهن عنيد أو مستبد إلى قديس، أو تحويل رجل لطيف إلى مسخ أو شبح فقط لأنه كان متفوقاً علينا، من الأمور التي تحدث كل يوم.

لم قال الرجل اللطيف الجاد هذا، نهض وأصغى السمع باتجاه الخارج. «ثمة شيء تغير هناك!»، قال: ونحّى غطاء النافذة؛ كان ضوء القمر يلمع». انظر قال: «بقوة هاهم المراقبون يعودون أدراجهم؛ سيتفرقون، وسيذهبون إلى دورهم؛ يبدو أن هناك تصدعاً في الجانب الآخر من جدار التدعيم وقد تدفقت المياه».

نظرت إلى هناك وأنا بجانبه؛ النافذة هنا تطل على حافة السد؛ كان الوضع مثلما قال. أخذت كأسي وشربت الثمالة: «أشكركم على هذه الأمسية «قلت أنا: أظن أنه بإمكاننا النوم في هدوء!»

«يمكننا هذا» قال السيد الضئيل: «أتمنى من القلب ليلة نوم عميق!»

لدى مغادرتي التقيت مشرف السد تحت في الطابق الأرضي؛ أراد مخططاً كان قد تركه في الحانة ليأخذه معه إلى البيت. «انتهى كل شيء!» قال: «إنما مدير مدرستنا أخبركم بالكثير؛ هو من المستنيرين!»

«يبدو رجلاً ذكياً!»

«أجل، أجل، أكيد؛ لكن لا يمكنكم الشك بما رأته عيناكم؛ وهناك في الجانب الآخر، كما توقعت، تصدع السد!»

هززت كتفي: «يجب الذهاب إلى النوم! طابت ليلتك حضرة مشرف السد!»

ابتسم: «ليلة سعيدة»

في الصباح التالي، ومع أشعة الشمس الذهبية التي سطعت على دمار واسع، قدت جوادي باتجاه المدينة عبر سد هاوكه هايين.

تيودور شتورم
(١٨١٧-١٨٨٨)

- كاتب ألماني من أبرز ممثلي التيار الواقعي في الرواية الألمانية.
- درس الحقوق وتعاطف مع ثورة ١٨٤٠ وأيد تطلعات الليبراليين لتوحيد ألمانيا.
- كتب قصائد وقصص وروايات وتُعد هذه الرواية أبرز أعماله.

د. مازن المغربي

- مترجم سوري.
- إجازة في طب الأسنان وجراحتها.
- شهادة دراسات عليا في الأدب الفرنسي.
- **من أعماله المترجمة:**

* مسرحية فن، الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٢٢م.

٢٠٢٢م